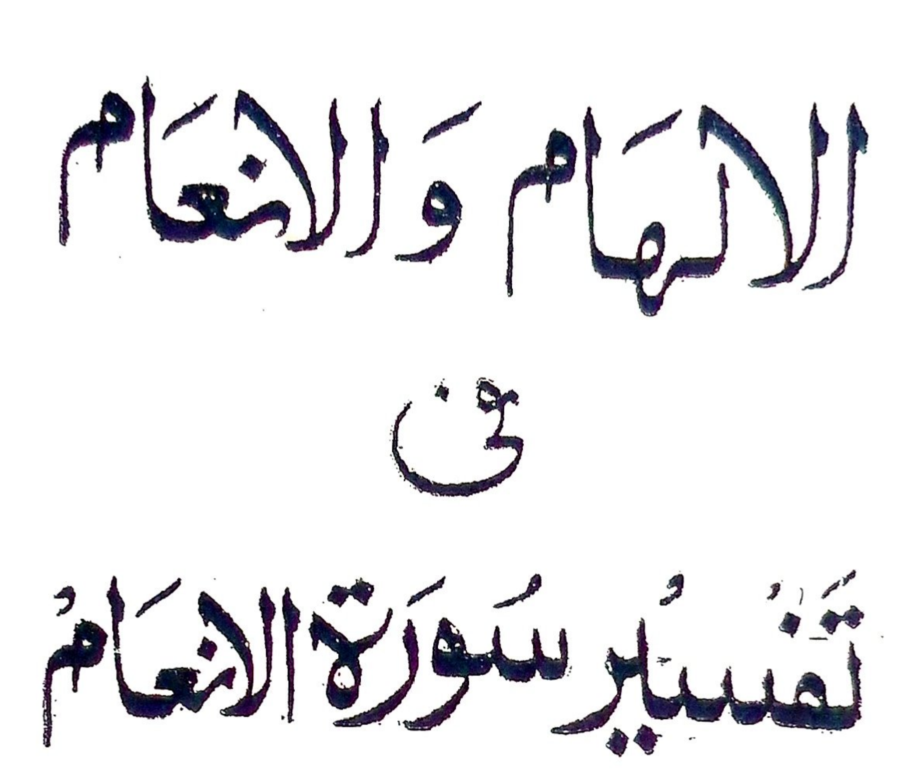


تأليف

الدكتور تقي الدين الهلالي

رحمه الله تعالى

الناشر

إدارة البحوث الإسلامية بالجامعة السلفية ببنارس

الطبعة الأولى

رجب ١٤٠٧هـ = مارس ١٩٨٧م

بالمطبعة السلفية ، بنارس ، الهند

يطلب من

١ — المكتبة السلفية ، ريوري تالاب ، بنارس - ٢٢١٠١٠

٢ — مكتبة جريدة ترجمان ٤١١٦ ، اردو بازار ، جامع مسجد دهلي - ١١٠٠٠٦

٣ — الدار السلفية ، ٦/٨ - اے ، حضرت تيريس ، شيخ حفيظ الدين بمبئ - ٤٠٠٠٠٨

الدكتور محمد الفالح جزاه الله خيرا

فهرست كتاب الإلهام والإنعام فى تفسير سورة الأنعام

◎ ◎ ◎



الالهام والانعام، فى تفسير سورة الأنعام

للدكتور تقي الدين الهلالي

الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون. هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون. اللهم صلى على محمد وعلى آله واصحابه والتابعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين.

اما بعد، فيقول افقر العباد الى ربه الكبير المتعالى محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالى: لقد مارست الوعظ والدعوة الى الله تعالى منذ عشرات السنين فى امم مختلفة فى طباعها ولغاتها، فوجدت ان أنفع شيء يدخل الآذان بدون استئذان وتنشرح له الصدور، هو كلام العزيز الغفور، وحديث النبي المبرور، فهما احسن البذور. متى وجدا تربة صالحة وزارعا يحسن الحرث نبت زرعا واخرج شطئه واستغلظ واستوى على سوقه يعجب الزراع ويغيظ الكفار، او كشجرة اصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها. وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. الا ان تفسير الوحيين يجب ان يكون فى قالب مناسب لأهل الزمان والمكان مداويا لعللهم حلا لمشاكلهم مبشرا للمؤمنين كابتا للظالمين. وقد فسرت سورة الفتح فى كتاب قبسة من انوار الوحى فنفع الله بتفسيرها كثيرا من المؤمنين، فحملنى ذلك على تفسير سورة اخرى، ارجو ان يكون تفسيرها غذاء لروحى ولأرواح اخوانى من طلاب علم الكتاب والسنة وعامة المؤمنين. وهذه السورة هى سورة الانعام. ومن الله وحده استمد العون وهو حسبى ونعم الوكيل.

سورة الأنعام

فضائلها

نقل الامام ابن كثير عن الطبرانى بسنده الى عبد الله بن عباس قال: نزلت سورة الانعام بمكة ليلا جملة واحدة، حولها سبعون الف ملك يجأرون بالتسبيح . وروى الحاكم فى مستدركه عن جابر قال، لما نزلت سورة الانعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال، لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق. ثم قال صحيح على شرط مسلم. وروى ابن مردويه عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: نزلت على سورة الانعام جملة واحدة، وشيعها سبعون الفا من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد.

نزولها وعدد آياتها

تقدم انها نزلت على النبى ﷺ بمكة. وعدد آياتها مائة وخمس وستون.

الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم. (الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (١).

المفردات

الخلق. الايجاد على غير مثال سابق. جعل، بمعنى خلق.

الظلمات، ظلمة الليل وسائر الظلمات. النور، نور الشمس وما شاكله من الانوار الحسية، ونور العلم والايمان بالله تعالى وما شاكله من الأنوار المعنوية.

والكفر، ستر الحق وجحـــده. وسمى الليل كافرا؛ لأنه يستر الاشياء بظلامه

قال الشاعر.

حتى اذا القت يدا فى كافر وأجن عورات الثغور ظلامها

وقال، (فى ليلة كفر النجوم غمامها).

والعدل هنا بمعنى التسوية، لأن المشركين يجعلون لله انداداً يسوونهم به فى بعض الامور، كدعائهم وطلب الخير منهم.

المعنى العام

حمد الله نفسه سبحانه، وفى ضمن ذلك امر لعباده ان يحمدوه ويثنوا عليه الخير كله الذى خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ويخلق ما لا تعلمون. فهو الذى يستحق الحمد والثناء، لأنه الفاعل المختار فى الحقيقـــة. وغيره لا يحمد إلا على المجاز. وخلق الظلمات كلها، كظلمة الليل وظلمة الكفر وظلمة الجهل والحيرة. ومع هذا كله جعل المشركون له اندادا سووهم به فى دعائهم والاستغاثة بهم والخوف منهم بالغيب والاستعاذة بهم والتوكل عليهم فى جلب الخير ودفع الشر والحلف بأسمائهم والنذر لهم وتقريب القرابين وإعطاء الصدقات لوجوههم والحج إلى الأوثان المنصوبة عليهم والطواف بها والتمرغ باعتـــابها وأخـــذ التراب منها للاستشفاء والتبرك واتخاذها أعياداً واقامة المواسم عندها والاحتفالات واللجوء إليها عند الشدائد وبناء المساجد عندها وكتابة الرسائل للاستغاثة والاستعانة والقائها فى صناديق بريدها وتقـــديس سدنتها إلى غير ذلك من أنواع العبادة التى يتقربون بها إليها. قال الله تعالى واصفا لحالهم فى الدار الآخرة (وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله، هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغـــاوون وجنود ابليس أجمعون، قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون، فما لنا من شافعين ولا صديق حميم)

ثم قال تعالى ، (هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم انتم تمترون (٢)

المفردات

قال الراغب ، القضاء ، فصل الأمر قولا كان ذاك أو فعلا . انتهى كلامه أقول ، وهو هنا من الفعل ، الأجل المدة المحدودة . عنده ، أى لا يعلمه غيره . تمترون ، تشكون .

المعنى العام

ضمير هو عائد على الله تعالى . خلقكم أى اباكم آدم من طين ، ثم قضى أجلا ، أى ضربه وحدده ، وهو من ولادة الانسان إلى موته . وأجل مسمى ، أى مضروب ومحدد عنده لا يعلمه غيره . وهو ما بين الموت وقيام الساعة ، ومع ذلكم تمترون ، اى تشكون فى البعث ، وذلك امر غريب لو استعملتم عقولكم لما شككتم فيه ، لأن البعث احياء بعد الموت . والذى قدر على ايجاد الناس من العدم قادر على احيائهم ، ولا فرق بينهما . قال الله تعالى ، (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وقال تعالى ، (افعيينا بالخلق الاول ، بل هم فى لبس من خلق جديد) وقد تكرر هذا المعنى فى الكتاب العزيز بالفاظ مختلفة تفننا فى العبارة ودفعا لشبهة الخصم بالحجة البالغة والبراهين القاطعة ، وحاصله انكم تشاهدون النشأة الاولى بيقين لا شك فيه فكيف تشكون فى النشأة الأخرى ؟ .

ثم قال تعالى ، (وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (٣)

المعنى العام

قال الامام ابن كثير ، اختلف مفسرو هذه الآية على اقوال بعد اتفاقهم على انكار قول الجهمية.

الاول : قول القائلين تعالى عن قولهم علوا كبيرا بانه فى كل مكان حيث حملوا الآية على ذلك. فالاصح من الاقوال انه المدعو فى السموات وفى الارض ، أى يعبده ويوحده ويقر له بالالهية من فى السموات ومن فى الارض. ويسمونه الله ويدعونه رغبا ورهبا ، الا من كفر من الجن والانس . وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى (وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله) اى هو اله من فى السماء ومن فى الارض ، وعلى هذا فيكون قوله يعلم سركم وجهركم خبرا أو حالا. والقول الثانى ان المراد انه الله الذى يعلم ما فى السموات وما فى الارض من سر وجهر ، فيكون قوله ، يعلم متعلقا بقوله فى السموات وفى الارض. تقديره ، وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الارض ويعلم ما تكسبون. والقول الثالث ، ان قوله ، وهو الله فى السموات وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال ، وفى الارض يعلم سركم وجهركم. وهذا إختيار ابن جرير. وقوله ، ويعلم ما تكسبون ، اى جميع أعمالكم خيرها وشرها انتهى كلام ابن كثير. قوله بعد اتفاقهم على انكار قول الجهمية القائلين فى كل مكان. الجهمية هم اتباع جهم بن صفوان ينكرون الصفات وكل من أنكر شيئا مما أثبت الله لنفسه فى كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ فى سنته فهو جهمى ، وكذلك من أول شيئا من ذلك تأويلا محدثا لم يقل به أصحاب رسول الله فهو جهمى. والسلف الصالح ومن اتبعهم باحسان يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصف به رسوله الأمين من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل. و القول الثالث الذى اختاره ابن جرير هو معنى قوله تعالى، (الرحمن على

العرش استوى، وقول النبي ﷺ في قصة بني قريظة لسعد بن معاذ، لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات. قد أفرد الامام الذهبي هذه المسألة بكتاب، سماه كتاب العلو للعلي الغفار، جمع أدلتها بالتفصيل.

ثم قال تعالى، (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم انباء ما كانوا به يستهزءون (٥)

يخبر سبحانه وتعالى عن الكافرين أنهم كلما جاءتهم آية، أى دلالة من المعجزات والبراهين على صدق الرسول أعرضوا عنها ولم يلتفتوا اليها وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وعنادا واستكبارا فترتب عن ذلك تكذيبهم بالحق، وهو القرآن والرسول وما جاء به، فسوف يأتيهم ان عاجلا أو آجلا أنباء، اى أخبار ما كانوا يستهزءون به من الآيات. والمراد بالأنباء هنا ما أخبر الله به من العذاب المعد للمكذبين فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى، (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرنا آخرين (٦)

المفردات

القرن، القوم المقترنون فى زمان واحد. الدر، غزارة المطر مأخوذ من درت الناقة إذا كثر لبنها.

المعنى العام

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه أهلك كثيرا من الامم بعد ما أعطاهم من قوة الابدان وكثرة الأموال والأولاد والجاه والسلطان ما لم يعط أهل مكة وسائر

المكذبين لرسوله محمد ﷺ فمن جملة الارزاق التى أعطاهم كثرة الامطار فى وقت الحاجة إليها . والسماء هنا بمعنى المطر من تسمية الحال باسم المحل . قال الشاعر

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

وتفجير العيون والأنهار وكثرة الحدائق والاشجار تحيط بالقصور الشامخة ، فعصوا الله وخالفوا أمره وكذبوا رسله فأهلكهم الله بذنوبهم ، وخلق من بعدهم قوما آخرين ليبتليهم كما ابتلى الاولين ، ومن كفر أباده ولا يظلم ربك عباده .

ثم قال تعالى ، (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين (٧) وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر ثم لا ينظرون (٨) ولو جعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون (٩) ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون (١٠) قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١١)

المفردات

القرطاس ، ما يكتب فيه عادة . قال الراغب ، السحر ، يقال على معان ، الأول الخداع وتخييلات لا حقيقة لها ، نحو ما يفعله المشعبد بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يده . والثانى ، استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه . والثالث ، ما يذهب إليه الاغتام ، وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع فيجعل الانسان حمارا ، ولا حقيقة لذلك عند المحصلين . اه

المعنى العام

يقول الله سبحانه مخاطبا رسوله محمدا ، لو انزلنا عليك كتابا مكتوبا فى صحائف يلمسونها بأيديهم لما آمنوا ولنسبوا ذلك إلى السحر الواضح . وقال الكافرون

هلا أنزل الله ملكا يشهد لهـذا الرجل أنه مرسل من الله ، فرد الله عليهم بقوله ، ولو جعلناه ، أى الرسول ملكا أو أنزلنا ملكا مـع الرسول البشرى لجعلنا ذاك الملك على صورة رجل ، لأن البشر لا يستطيعون أن يروا الملك على الصورة التى خلقه الله عليها ، حتى أن الرسول ﷺ عـلى علو منزلته لم يكن يستطيع ان يرى الملك على صورته الحقيقية ، فكان جبريل يأتيه على صورة دحية الكلبى . وإذا جاءهم ملك على صورة رجل يعود اللبس و يحتاج هذا الرسول الملك إلى ملك آخر يشهد له فيقع تسلسل لا نهاية له . وإنما قالوا ذاك تعنتا ، لأن دلائل صحة رسالة النبى كالشمس فى رابعة النهار

وكيف يصح فى الأذهـان شىء إذا احتاج النهـار إلى دليل

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم المـاء من سقم

ثم قال تعالى مسليا رسوله ، (ولقـد استهزىء برسل من قبلك) الآية . يخبر سبحانه أن سنته فى خلقه جرت بأن كل رسول يرسل إلى أمة ليعالج أمراضها ويشفيها باذن الله من أدوائها لتتأهل للكرامـة والسعادة ؛ تقابل رسولها بالاستهزاء والسخرية ، لأنها قد استطابت ذلك المرتع الوخيم وألفته فهى تعادى كل من يتصدى لما يخالف أهواءها وينقلها عن مألوفاتهـا ، وكذلك سائر المصلحين من اتباع الرسل يلقون شيئا مما لقيـه متبوعوهم ، وذلك من تمام ارثهم لعلومهم وأحوالهم . ثم نبههم سبحانه وتعـالى إلى السير فى الأرض ليروا بأعينهم ديار المجرمين الذين كذبوا الرسل من قبل ويعتبروا بما حل بهم . ومثل هـذا كثير فى كتاب الله كقوله تعـالى (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ؛ ولـكن تعمى القلوب التى فى الصدور)

ثم قال تعالى ، (قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله كتب عـلى نفسه

الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لاريب فيه الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون (١٢)

ثم أخذ سبحانه وتعالى يقيم الحجة على المشركين من جديد فأمر نبيه أن يقول لهم، من يملك ما فى السموات وما فى الارض، ولما كان الجواب معلوما أمر نبيه به فقال، قل لله، ثم رغب الجاحدين و الفاسقين فى رحمته فأخبرهم أنه كتبها على نفسه. و فى صحيح البخارى و مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال، لما خلق الله الخلق كتب كتابا فهو عنده فوق العرش أن رحمتى تغلب غضبى. ثم اقسم الله سبحانه أنه سيجمع عباده كلهم فى يوم القيامة، وهو آت لا شك فيه. وفى ذلك اليوم يخسر المبطلون الذين جحدوا آيات الله أو اهملوا النظر فيها واتبعوا أهواءهم ولم يؤمنوا بالله.

ثم قال تعالى، (وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم (١٣)

هذه حجة أخرى على المشركين، يخبر سبحانه، أن كل شىء ساكن فى الليل والنهار وكل شىء متحرك، فانه يملكه و الذين يدعون من دونه لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض و هذا كقوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر)، أى والبرد، فكذلك له ما سكن وما تحرك. وهو السميع لأقوال عباده، و منها التوحيد والشرك، عليم بأفعالهم. ومنها ما هو خالص له، و منها ما هو عبادة لغيره، وهو مجازيهم على ذلك ان خيرا فخير وان شرا فشر.

ثم قال تعالى، (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل انى أمرت أن أكون اول من أسلم ولا تكونن من المشركين (١٤) قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم (١٥) من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه و ذلك الفوز المبين (١٦) و ان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير (١٧) و هو القاهر فوق عباده و هو الحكيم

الخبير (١٨) قل أى شئ أكبر شهادة قل الله شهيد بينى و بينكم و أوحى الى هذا القرآن لأنذركم به و من بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة اخرى قل لا أشهد قل انما هو اله واحد وانى برئ مما تشركون (١٩)

الخطاب للنبي ﷺ علمه ربه سبحانه كيف يحاج المشركين فقال له، قل لهم، كيف أتخذ غير الله وليا استنصره و أستعين به و اسأله جلب الخير و دفع الشر وافزع اليه فى الملمات و أذبح له و انذر و أهتف باسمه عند الشدائد، و هذا معنى الولى وهو الذى خلق السموات والأرض وابدعهما على غير مثال سبق. وهو الذى يطعم كل حى و يرزقه ولا يحتاج الى طعام ولا رزق ولا مدد من سواه و انتم لجهلكم تخضعون للمخلوقين المرزوقين المحتاجين و تدعونهم وتستغيثون بهم، وكل من له ادنى شئ من العقل يشمئز من هذا الصنيع و ينكره. و صدق الله العظيم، فالعجب كل العجب من المشركين الذين يرون اولياءهم محتاجين الى طعامهم وايوائهم وحملهم على دوابهم أو على سفنهم وغيرها من المراكب الدارجة على الارض والطائرة فى السماء ويحتاجون الى كسوتهم و تنظيف ثيابهم و أبدانهم و علاجهم اذا مرضوا الى غير ذلك من الحاجات الكثيرة، فيمدونهم بكل ذلك، ثم يسألونهم ما لا يقدرون عليه كاطالة الحياة و هداية القلوب و شفاء الامراض و النصر على العدو وسعة الرزق و اعطاء الاولاد و الحفظ من المكاره. أو لم يعلموا المثل السائر، أن فاقد الشئ لا يعطيه. و هولاء السفهاء يقضون حاجات أوليائهم الحقيقته المشاهدة المدوسة، و يسألونهم اشياء وهمية و خيالية يمكن التدليس فيها و الكذب، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون. روى ابن كثير فى تفسيره عن أبى هريرة قال، دعا رجل من الانصار من أهل قباء النبى ﷺ على طعام فانطلقنا معه فلما طعم النبى ﷺ و غسل يديه قال، الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم و من

علينا فهدانا و أطعمنا و سقـانا من الشراب ، وكل بلاء حسن ابلانا ، الحمد لله غير مودع ولا مكافئ ولا مكفور ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذى أطعمنا من الطعام و سقانا من الشراب وكسانا من العرى و هـدانا من الضلال و بصرنا من العمى وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا ، الحمد لله رب العالمين .

شرح الفاظ هذا الحديث

قوله ، وكل بلاء حسن ابلانا . ابلى الله العبد وبلاه ، أى اختبره ليظهر شكره أوكفره للناس و للمبتلى نفسه . و يكون البلاء كما قال الراغب ، بالمنحة و بالمحنة فالعبد الصالح اذا منح شكر و اذا أصابته محنة صبر ، والعبـد الطالح بخلاف ذلك . قوله غير مودع ، أى غير متروك حمده وشكره . ولا مكافى ، أى لا يحتاج الى المكافاة كما يحتاج الانسان . ولا مكفور ، لا تكفر نعمته . ولا مستغنى عنـه ، لا يستغنى عنه أحد من خلقه . ثم قال تعـالى ، قل يا محمد انى أمرت امرنى الله أن أكون أول من أسلم من هذه الأمة ، والاسلام هنا هو الاستسلام والانقيـاد لأمر الله تعالى . قال الله تعالى ، ولا تكونن من المشركين . و هذا النهى موجه بقوة و شدة لنا معشر المخاطبين المأمورين بتوحيده ، لأن النبي ﷺ معصوم من الشرك والمعصية . ثم قال تعالى من هذا القبيل ، قل انى أخاف ان عصيت ربى بالشرك أو غيره عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة . من يصرف عنه ذلك العذاب فقد رحمه الله ، وذلك الفوز المبين أى السعادة العظمى . ثم قال تعالى فى اقامة الحجة على المشركين مخاطبا رسوله ﷺ وكل من يصلح للخطـاب ، وان يمسسك الله ، أى يصبك بضر فلا كاشف له الا هو ، لا يستطيع أحد أن يكشفه عنك كائنا من كان . و ان يمسسك ، أى يصبك بخير فهو على كل شئ قدير وغيره عاجز عن كل شئ . وقد

خاب وخسر من يترك القدير ويدعو العاجز الفقير. قال تعالى، وهو القاهر فوق عباده. القاهر الغالب الذى يفعل ما يشاء فى ملكه ولا يخشى عاقبة فعله، يحيى ويميت ويعطى ويمنع ويضع ويرفع، والكل تحت قهره، عنت له الوجوه وخشعت له الاصوات لا معقب لأمره ولا راد لقضائه وهو العلى العظيم وهو الحكيم فى قدره وشرعه وأفعاله. ثم قال تعالى مخاطبا رسوله ﷺ، قل أى شىء أكبر شهادة، أى شاهد أعظم شهادة، ثم أمره أن يقول، الله شهيد بينى وبينكم وهو خير الشاهدين. وقد شهد لرسوله ﷺ فقال، محمد رسول الله. وقال، وانك لعلى خلق عظيم، وقال، وانك لتهدى الى صراط مستقيم. وقال تعالى، والله يشهد انك لرسوله. وأوحى الى هذا القرآن، انزله الله على لأحذركم به من عذابه وأحذر من بلغه الى يوم القيامة. أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى مخلوقين كالملئكة وعيسى وأمه وكل من عبد من الصالحين والطالحين والجن والانس، قل لهم أنا لا أشهد بذلك، بل أقول، انما هو اله واحد وأتبرأ من كل ما تشركون، وهكذا يجب على كل من اتبعه أن يقول، قال الله تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم انا برآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) من سورة الممتحنة. وقال تعالى فى سورة البقرة (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم، الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فلا يصح الايمان بالله الا بعد الكفر بالطاغوت. وحينئذ تصح ولاية الله للعبد ويخرج من الظلمات الى النور. وقال تعالى فى سورة الزخرف (واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انى براء مما

تعبدون الا الذى فطرنى فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون)

فالتبرؤ من عبادة غير الله شرط فى صحة الايمـــان. و الآيات فى هذا المعنى كثيرة.

ثم قال تعـالى، (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون (٢٠) ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه لا يفلح الظالمون (٢١) ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون (٢٢) ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنـــا ما كنـــا مشركين (٢٣) انظر كيف كذبوا على انفسهم و ضل عنهم ما كانوا يفترون (٢٤)

المعنى العام

ثم أخبر الله سبحانه عن اليهود والنصارى انهم يعرفون محمدا أنه نبى ورسول الى الناس كافة بما فى كتبهم من نعته وصفته وبما عندهم من العلم الذى يميزون به الصادق من الكاذب، فكتم أكثرهم الشهادة وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم عنادا واستكبارا فخذلهم الله و نصر رسوله و المؤمنين فخسر اولئك الجـــاحدون فى الدنيا والآخرة وأهلكوا انفسهم بحرمانها من ثمرات الايمان و ايقاعها فى الشقاء و العذاب الدائم.
ثم قال تعالى: ومن أظلم، أى جرما واعظم ذنبا من هؤلاء المشركين والجاحدين. فالمشركون جعلوا لله اندادا شركاء يحبونهم كحبه أو اكثر، ويعبدونهم كعبادته أو اكثر، و زعموا أنهم ينصرونهم ويشفعون لهم عند الله، قال تعالى فى سورة مريم (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا (٨١) كلا سيكفرون بعبـــادتهم ويكونون عليهم ضدا (٨٢) و قال تعـــالى فى سورة يس (و اتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون (٧٤) لا يستطيعون نصرهم و هم لهم جند محضرون (٧٥)

وقال تعالى فى سورة فاطر (يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل و سخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣) ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم و لو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير (١٤). وقد تكرر هذا المعنى فى كتاب الله فى مواضع تفوق الحصر. والعجب ممن يقرأ كتاب الله ويصر على الشرك مع هذا البيان و الحجة البالغة و البراهين القاطعة، و من يضلل الله فماله من هاد. ثم قال تعالى: أو كذب بآياته، أى رد الدلالات والحجج، انه لا يفلح الظالمون، أى لا يفوزون ولا ينجحون، بل يخسرون فى الدنيا و الآخرة، لأنهم كذبوا على الله باتخاذهم الاولياء من دونه، وكذبوا رسله وكتبه فهم الكاذبون المكذبون. ثم اخبر الله سبحانه أنه سيحشر الناس كلهم و يجمعهم فى يوم القيامة ثم يخاطب المشركين بقوله: أين الشركاء و الاولياء الذين اتخذتموهم من دونى وزعمتم أنهم ينفعونكم فى الدنيا و الآخرة، فيسقط فى أيديهم ولا يجدون جوابا عن هذه الفتنة وهذا الامتحان الا الكذب فى الآخرة كما كذبوا فى الدنيا فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين. قال الله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ بالأصالة وكل من يصلح الخطاب بالتبعية انظر بعقلك كيف كذبوا على انفسهم فى الدنيا باتخاذهم الاولياء وفى الآخرة بالجحود، ولكن هذا الجحود لا ينفعهم يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وأرجلهم بما كانو يعملون، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين.

ثم قال تعالى: (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الاولين (٢٥)

المعنى العام

اخبر الله سبحـــانه ، أن بعض المشركين يستمعون الى النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ، ولكن لا يفهمونه فهم قبول ينتفعون به ، لأن الله طبع على قلوبهم بسبب عنادهم وجحودهم فصارت قلوبهم عليها أغطية تمنعها من قبول الحق و الاهتداء به كما قال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين) وقال تعالى (ونقلب افئدتهم و أبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة و نذرهم فى طغيانهم يعمهون) وجعل الله فى آذانهم صمما فلا تسمع القرآن سماع قبول وهداية ، بل سماع تكذيب وجحود . و لذلك الطبع على القلوب و الصمم فى الآذان لا تؤثر فيهم الآيات ، ولا تنفعهم الحجج و الدلالات ، فلا يؤمنون بشئ منها وكلما جاءتهم آية وقرعتهم حجة قالوا فى ردها : هذه أساطير الاولين أخذها محمد من كتب الامم السابقـــة . هذا وهم يعلمون أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب ولم يخالط تلك الامم ولا سمع منها شيئا ، وانما هم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق فلم يفلحوا .

ثم قال تعالى ، (وهم ينهون عنه و ينأون عنه و ان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون (٢٦) .

قال تعالى : وهم أى أعداء الاسلام ينهون الناس عن الايمان بالقرآن والرسول ، ويتباعدون عنه ظنا منهم أنهم بذلك يستطيعون أن يطفئوا نور الله و يمنعوا الناس من الاهتداء به ليتوصلوا بذلك الى القضاء على الدعوة المحمدية ، وما يهلكون بذلك الا أنفسهم بتعريضها لعذاب الدنيا و الآخرة وما يشعرون بذلك وقيل فى تفسير الآية انها فى أقارب النبى ﷺ كانوا ينهون الناس عن محاربة النبى ويتباعدون عن الايمان به ، والاول أولى .

ثم قال تعالى ، (ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب

بآيات ربنـــا ونكون من المؤمنين (٢٧) بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادو لما نهوا عنه وانهم لكاذبون (٢٨) وقالو ان هى الا حياتنا الدنيـــا وما نحن بمبعوثين (٢٩).

المعنى العام

الخطاب هنـــا للنبى ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب، ولو ترى هؤلاء الكافرين حين يوقفون على النـار و يرون العذاب باعينهم فيندمون على ما فعلوه فى الدنيا ويقولون ياليتنا نرد اليها فنؤمن بالله ولا نكذب بآياته. ثم أخبر الله سبحانه وتعالى، انهم لو ردوا الى الدنيا لعادوا الى كفرهم، وانهم كاذبون فى قولهم. والسبب فى ذلك أن نفوسهم خبيثة تغتر بالعاجل وتركن اليه ولا تفكر فى العواقب. ولذلك قالوا، ان هى الا حياتنا الحاضرة و أنكروا البعث و الحياة الآخرى لعمى بصائرهم. و قد حاجهم القرآن فى مواضع كثيرة، فحاجهم وأبطل شبهاتهم. وحاصل ذلك أن الانسان كسائر المخلوقات ليس أزليا، بل هو مسبوق بالعدم. وهذه المقدمة مسلمـــة عند كل عالم وعاقل، وقد صارت فى هذا الزمان كالامور المدركة بالحس، و حينئذ لايبقى مجال لجحد المقدمة الثانيـــة، وهى أن من خلقهم أولا قادر على أن يخلقهم ثانيا (اوليس الذى خلق السموات و الارض بقـــادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم، انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليـــه ترجعون) آخر سورة يس. وقال تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين) من سورة الانبياء، وقال تعالى، (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) من سورة الروم، وقال تعالى، (أفعيينـــا بالخلق الاول، بل هم فى لبس من خلق جديد) من سورة ق، و الآيات فى ذلك كثيرة.

ثم قال تعالى: (ولو ترى اذ وقفوا على ربهم ، قال أليس هذا بالحق ، قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٠)

ولو ترى أيها المخاطب الكافرين المكذبين حين يوقفون بين يدى الله ، فيقول لهم بلا ترجمان ، أليس هذا البعث الذى كفرتم به فى الدنيا حقا واقعا ، فيجيبون ، وهم فى غاية الحسرة ، بلى والله ، فيقول الله لهم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون بإنكاركم المعاد.

ثم قال تعالى: (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم الا ساء ما يزرون (٣١)

يقول سبحانه وتعالى: (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) فى تجارتهم ، وهى استبدالهم الايمان بالكفر وإنكار البعث والجزاء ، وستتبين لهم هذه الخسارة حين تجيئهم الساعة ، أى القيامة بغتة أى فجاءة ، وحينئذ يقولون يا حسرتنا على ما فرطنا فى الدنيا ويندمون حين لا ينفعهم الندم ، وهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم لا يستطيعون سترها فى الآخرة ، وان استطاعوا ذلك فى الدنيا ، لأن الله يفضحهم على رؤس الاشهاد ، كما يفتضح من حمل شيئا مسروقا على ظهره. وبئس الحمل ذلك . ولو فكر أهل المعاصى وأهل الظلم والغضب أنهم سيحملون جرائمهم فى ذلك اليوم العظيم أمام الناس ما ارتكبوا تلك الجرائم.

ثم قال تعالى: (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (٣٢)

يخبر سبحانه أن هذه الحياة الأولى التى نحياها إذا لم نعتبر ما فيها من الايمان بالله والعمل الصالح الموجب لمرضاته ليست إلا لعبا ولهوا لا خير فيها

ولا نفع، كما أن اللعب بجميع أنواعه لا يثمر شيئا. وكذلك اللهو، كاستماع الغناء مثلا لا ثمرة له. فمن لم يقسم وقته على الأعمال المطلوبة منه شرعا كالعبادات والقيام بسائر الواجبات التى بينت فى حديث سلمان وأبى الدرداء حين قال سلمان له: إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، فأعط كل ذى حق حقه. والحديث فى صحيح البخارى. فاللعب واللهو إذا كانا مباحين من حق النفس، وثمرتهما الترويح عنها واستجمامها لتتقوى على الأعمال الجدية. أما اللهو واللعب المفضيان إلى إضاعة الحقوق الأخرى فهما المعنيان بالتنبيه فى هذه الآية وبيان ذلك أن من اغتر بهذه الحياة الدنيا وآثرها وأهمل ما أوجب الله عليه من الأعمال الصالحة يكون كمن ترك أداء واجبه الذى بأجره يعيش واشتغل بدلا من ذلك باللعب واللهو، فإن خسارته وندامته حين يرى الناس يقبضون أجور أعمالهم لاحد لهما ولا يدخلان تحت الوصف. يزيد ذلك وضوحا قول النبى ﷺ: الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما.

وحينما جاء ذم الحياة فى كتاب الله وسنة رسوله؛ ينبغى ان يفسر بمثل ما تقدم. وقد راجعت ما بيدى من التفاسير فلم أجد أحدا منهم أوضح هذا المعنى. ففسرت الآية بما فتح الله به ولله الحمد والمنة. وقوله سبحانه: (وللدار الآخرة خير للذين يتقون) أى نعيمها الدائم ورضوان الله على أهلها خير من متاع الدنيا الفانى المنغص للذين يتقون الله ويتبعون رضوانه، إذ هم وحدهم الذين يفوزون بذلك: وقوله: (أفلا تعقلون) معناه أن من آثر الحياة الدنيا التى هى لعب ولهو متجنب بسبيل العقلاء سالك سبيل السفهاء.

ثم قال تعالى: (قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون، فإنهم لا يكذبونك،

ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون (٣٣) ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين (٣٤) وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فان استطعت أن تبتغي نفقا فى الارض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين (٣٥) إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون (٣٦) .

قوله تعالى : (قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون) الآية . فى هذا الكلام تسلية من الله لنبيه وتصديق له وتوبيخ لأعداء الاسلام . ومثله ، قوله تعالى فى أول سورة الكهف : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا (٦) وقوله فى سورة فاطر : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون (٨) وقوله تعالى فى أول سورة الشعراء : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (٣) إن نشأ ننزل عليهم آية من السماء فظلت أعناقهم لها خاضعين (٤) وانما كان النبي ﷺ يحزن لتكذيب المكذبين حرصا منه على هداية الناس وسعادتهم وإشفاقا منه عليهم ، فأخبره الله أن أولئك المكذبين ، انما يكذبونه بألسنتهم ، وهم يعتقدون صدقه فى قرارة نفوسهم جحودا منهم للحق واستكبارا أن يذعنوا له ويقروا به . وقد وردت آثار فى بيان معنى هذه الآية ، منها ما رواه ابن أبي حاتم بسنده الى أبي يزيد المدنى ، أن النبي ﷺ لقى أبا جهل فصافحه ، فقال له رجل : لا أراك تصافح هذا الصابئ ، فقال : والله إنى لأعلم أنه لنبي ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعا ، وتلا أبو يزيد : (فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) . وذكر محمد بن اسحاق عن الزهرى فى قصة أبي جهل حين

جاء يستمع قراءة النبى ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس ابن شريق ، ولا يشعر أحد منهم بالآخر ، فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق ، فقال كل منهم للآخر ما جاء بك ، فذكر له ما جاء به ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شبان قريش لئلا يفتتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظنا أن صاحبيه لا يجيآن لما سبق من العهود ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا ، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضا ، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعته من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت اشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به ، ثم خرج من عنده . حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ، قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال فقام عنه الأخنس فتركه . وآيات الله الدالة على صدق محمد ﷺ كثيرة ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . قوله تعالى : (ولقد كذبت رسل من قبلك) الآية . استمرار فى تسلية النبى ﷺ وتصبيره وتطييب قلبه ، أخبره الله أن هذه سنته مع جميع رسله لا تبديل لها ، فما من رسول أرسله الله إلى قومه إلا قابلوه بالتكذيب والعداوة وقابلهم بالصبر والثبات ، فكانت العاقبة لرسل الله ومن تبعهم وجاءهم نصر الله وتمت عليهم كلمته بما صبروا ودمر الله

أعداءهم . وهذا كما قال تعالى فى سورة الصافات ، من ٧١/٧٣ : (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، أنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى فى سورة المجادلة : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز (٢١) وقال تعالى فى سورة المؤمن : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) (٥١) وقال تعالى فى سورة الاحقاف : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون (٣٥) فهذه الآيات كلها متشابهة ، فيها الأمر بالصبر للرسل وأتباعهم والوعد بالنصر وإن الله لا يخلف وعده . ولا مبدل لكلماته التى وعد بها أولياءه بالنصر والتأييد .

وقوله تعالى : (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) خطاب من الله تعالى لرسوله ، يقول : ولقد جاءك من أخبار المرسلين السابقين من صبرهم على أذى قومهم ونصر الله لهم ما يثبت فؤادك ويذهب عنك الحزن . وقوله سبحانه : (وإن كان كبر عليك إعراضهم) الآية . رأيت أن انقل هنا تفسير الخازن لهذه الآية بالفاظه ، لأنها تتضمن عتابا للنبى ﷺ فخفت أن يكون فى تفسيرى لها بالفاظى ما يقصر عن الادب اللائق بذلك المقام ، قال الخازن : ذكر ابن الجوزى فى سبب نزول هذه الآية أن الحارث بن عامر أتى رسول الله ﷺ فى نفر من قريش فقال : ائتنا بآية كما كانت الانبياء تأتى قومها بالآيات ، فان فعلت آمنا بك ، فنزلت هذه الآية . رواه أبو صالح عن ابن عباس . ومعنى الآية ، وان كان عظم عليك يا محمد إعراض هؤلاء المشركين عنك وعن تصديقك والايمان بك . وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص ، وكان اذا سألوه آية احب أن يريهم الله ذلك طمعا فى إيمانهم . فقال الله عز وجل : (فإن استطعت أن تبتغى) يعنى

تطلب وتتخذ (نفقا فى الأرض) يعنى سربا فى الأرض. والنفق سرب فى الأرض تخلص منه الى مكان آخر (أو سلما فى السماء) يعنى أو تتخذ الى السماء. والسلم المصعد وهو مشتق من السلامة. (فتأتيهم بآية) يعنى بالآية التى سالوا عنها. ومعنى الآية، وإن كان كبر وعظم عليك إعراض قومك عن الإيمان بك، فان قدرت أن تذهب فى الأرض أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية تدلهم على صدقك، فافعل. وإنما حسن حذف جواب الشرط، لأنه معلوم عند السامع. والمقصود من هذا أن يقطع رسول الله ﷺ طمعه عن إيمانهم ولا يتأذى بسبب إعراضهم عنه وعن الايمان به. ويدل عليه قوله تعالى: (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أخبر الله عز وجل نبيه ﷺ أنهم إنما تركوا الإيمان وأعرضوا عنه وأقبلوا على الكفر بمشيئة الله تعالى ونافذا قضائه فيهم. وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى (فلا تكونن من الجاهلين) يعنى بأن لو شاء الله لجمعهم على الهدى. وأنه يؤمن بك بعضهم دون بعض، وقيل: معناه لا يشتد تحسرك على تكذيبهم إياك. ولا تجزع من إعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم. وإنما نهاه عن هذه الحالة وغلظ له الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة.

وقوله تعالى: (انما يستجيب الذين يسمعون) الآية. إخبار منه سبحانه أن من ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة بسبب عناده واستكباره فقد حقت عليه كلمة العذاب، فلن يسمع سماع قبول ولن يستجيب لله وللرسول أبدا فلا مطمع فى هدايته. وقوله تعالى: (والموتى) أى الكفار الذين ماتت قلوبهم سيستمرون على كفرهم حتى يبعثهم الله ويرجعوا اليه فيوفيهم دينهم ويعاقبهم على كفرهم.

ثم قال تعالى: (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه، قل إن الله قادر على أن ينزل آية، ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٧) وما من دابة فى الأرض ولا طائر

يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء، ثم إلى ربهم يحشرون (٣٨) والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم (٣٩).

قوله سبحانه: (وقالوا لولا نزل عليه آية) الآية. قائل ذلك هم الكفار، ومرادهم بالآية، المعجزة الخارقة للعادة، كانزال ملك يكلمهم ويشاهدونه، أو إحياء ميت يقترحون إحياءه، أو تفجير أرض الصحراء عيونا، أو بناء بيت من ذهب كما قال تعالى فى سورة الاسراء: (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (٩٠) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا (٩١) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا (٩٢) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا (٩٣) واقتراح هذه المعجزات من اولئك الطغاة وجعل إيمانهم متوقفا على إيجادها أمر بلغ الغاية فى التعنت والتمرد والوقاحة والمكابرة، لأن تلك المعجزات اذا أوجد الله بعضها، فضلا عن كلها لم تبق فائدة للايمان وحينئذ ينزل بهم عذاب الله الذى يحذرهم رسول الله من وقوعه. قال تعالى: (قل لهم إن الله قادر على أن ينزل آية) وفق ما تطلبون، ولكن لو علمتم أن إنزال العذاب سيقترن بإنزالها ما طلبتموها. قوله تعالى: (وما من دابة فى الأرض) الآية. أخبر سبحانه أن أصناف الحيوان مما يدب على وجه الأرض ومما يطير فى الجو ومما يسبح فى البحار والأنهار، هى طوائف وجماعات مماثلة للإنسان فى أمور: منها أنها خاضعة لأمر الله ومطيعة له تسبحه وتحمده كما قال تعالى فى سورة الاسراء، ٤٤: (وإن من شىء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ومنها أنها اجناس تعرف باسمائها وصفاتها كاجناس بنى آدم. ومنها

أنهـا مخلوقة لله ، هو الذى خلقها وهو الذى يرزقها وهو الذى يدبر شئونهـا . ومنها أنها يألف بعضها بعضا ويفهم بعضها عن بعض ، فكثير من أجناسها تعيش مجتمعة متعاونة ، لها نظام دقيق يعجز عنه كثير من البشر ، كجماعات النحل وجماعات النمل وأسراب الطير ، وغير ذلك . ومن قرأ كتب علم الحيوان ورأى ما جعل الله فى أصنافه من الغرائز والخواص العجيبة يزداد إيمانه بالله ويشاهد آياته وبديع صنعه فى مخلوقاته ، ولا يسعه البتة أن يجحد تدبيره وتصرفه فى خلقه تصرف العليم الحكيم . ومنهـا ، ان أجناس الحيوان تطلب رزقها وتكدح فى طلبه كما يفعل الإنسان . ومنهـا ازدواج ذكورها بإناثها متعاونات على تربية أولادها برأفة وحنان وعطف . وإيثار ومنها المماثلة فى اتقاء المهالك والدفاع عن النفس والبعد عن أسباب الهلكة .

وقوله : (سبحانه ما فرطنا فى الكتاب من شىء) يعنى أن علم تلك الأجناس وحركاتها وسكناتها وأرزاقها قد أحاط الله بعلمهـا كما قال تعالى فى سورة هود : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقهـا ويعلم مستقرها و مستودعها كل فى كتاب مبين (٦) وقوله تعالى : (ثم إلى ربهم يحشرون) . فسره السلف على وجهين : أحدهما : ما جاء عن ابن عباس ، أن حشرها هو موتها . والثانى : أن الله يحشرهـا يوم يحشر الناس حتى يقتص للجلحاء من القرناء . روى أحمد بسنده إلى أبى ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحـان ، فقال : يا أبا ذر ، هل تدرى فيم تنتطحـان ؟ قال : لا ، قال : لكن الله يدرى ، وسيقضى بينهما وروى مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء . ثم قال تعالى : (والذين كذبوا بآياتنـا صم وبكم فى الظلمات) . شبه الله سبحانه المكذبين بحججه وكتبه التى بعث بهـا رسله بالصم الذين لا يسمعون ، لأنهم تصـاموا عن سماع الحق سماع قبول ، أو سماع

الصاف وتأمل ، والبكم الذين لا ينطقون ، لأنهم امتنعوا عن النطق بالحق والاقرار به مع وضوحه وقيام الحجة عليهم . وقوله فى الظلمات ، أى ظلمات كفرهم باتباعهم أهواءهم ، والهوى يعمى ويصم . وهذا كقوله تعالى : فى سورة هود (مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون (٢٤) والفريقان هما الكفار والمؤمنون . فالكفار كالاعمى والاصم ، والمؤمنون كالسميع والبصير ، ولن يستويا أبدا . ثم قال تعالى : من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم . يعنى ان من تجرد عن الهوى واحب الهدى هداه الله وجعله على طريق مستقيم ، وهو طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن اتبع هواه وزاغ عن أمر ربه أضله الله بالامهال والاستدراج حتى يفاجئه العذاب .

ثم قال تعالى : (قل أرايتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة بغتة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين (٤٠) : بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه إن شاء وتنسون ما تشركون (٤١) : ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (٤٢) : فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون (٤٣) : فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون (٤٤) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (٤٥) .

المعنى العام

قوله تعالى : (قل أرايتكم ان أتاكم عذاب الله ، الآية) . معناه ، قل يا محمد للكفار المكذبين بآيات الله ، اخبرونى ان أتاكم عذاب الله معجلا فى هذه الدنيا ،

او أتتكم الساعة، أى ساعة القيامة، من الذى تدعونه وتستغيثون به لكشف ما نزل بكم؟ أتدعون شركاءكم الذين عبدتموهم مع الله ليصرفوا عذاب الله عنكم، أم تدعون الله وحده وتهملون شركاءكم اهمال المنسى؟ بل الواقع انكم فى تلك الحال لا تدعون غير الله أبدا، بل تفردونه بالدعاء فيكشف ما شاء من ضركم وتهملون معبوداتكم. حتى اذا ذهب الضر وزالت الشدة عدتم الى الشرك بالله وعبدتم غيره. وهذا كما قال تعالى فى سورة الاسراء: (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا اياه فلما نجاكم الى البر اعرضتم وكان الانسان كفورا (٦٧). وقد تكرر هذا المعنى فى الكتاب العزيز فى مواضع كثيرة. فعلمنا ان المشركين الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ كانوا يوحدون الله فى الشدة ويشركون به فى الرخاء. أما مشركو هذا الزمان فانهم يدعون أولياءهم فى الشدة والرخاء ولا يوحدون الله فى أى وقت من الأوقات، بل كثيرا ما يوحدون أولياءهم ويخاطبونهم بقولهم، مالنا مغيث ولا ناصر ولا منقذ غيركم فاعطفوا علينا وانقذونا فتبين بذلك ان المشركين والكفرة فى هذا الزمان أشد كفرا وأعظم اشراكا من المشركين الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ فنعوذ بالله من الخذلان. ثم قال تعالى: (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) الآية. أخبر الله سبحانه رسوله محمدا تسلية له وتثبيتا أنه أرسل رسلا الى أمم من قبله فى القرون الخالية، وأنه أخذهم بالبأساء، أى شدة الفقر والضراء أى الأمراض ليرجعوا إلى الله بالخضوع والدعاء، فلم يخضعوا لله ولم يدعوه ويبتهلوا اليه ليكشف ما نزل بهم، بل غلظت قلوبهم وتحجرت فلم تلن وحسنت لهم شياطينهم أعمالهم، فحقت عليهم كلمة العذاب وأراد الله أهلاكهم حين اعرضوا عن ذكر الله واسرفوا فى معصيته وتعدوا حدوده واستهانوا بأمره، حينئذ فتح الله عليهم ابواب كل شيء مما يشتهونه من الصحة والأموال والارزاق والاولاد اذا تكامل فرحهم

وتم ابتهاجهم وامعنوا فى الغرور اخذهم الله بغتة وأهلكهم فجأة ، فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . وهذا كما قال تعالى: (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم ان كيدى متين) . نعوذ بالله من مكره وسخطه وعذابه . وقوله تعالى : (فاذاهم مبلسون) ، أى آئسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، أى استؤصلوا وهلك آخرهم . والحمد لله رب العالمين على نصر أهل الحق وكسر أهل الباطل .

ذكر ما ورد من الاخبار فى تفسير هذه الآية

روى ابن أبى حاتم عن قتادة أنه قال فى تفسير هذه الآية : بغت القوم أمر الله ، وما اخذ الله قوما قط الا فى سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فانه لا يغتر بالله الا القوم الفاسقون) . وقال مالك عن الزهرى : فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، قال رخاء الدنيا . وروى احمد بسنده الى عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال : اذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فانما هو استدراج ، ثم تلا رسول الله ﷺ ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون . وروى ابن أبى حاتم بسنده الى عبادة بن الصامت ، ان رسول الله ﷺ كان يقول : اذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون . ورواه احمد ايضا .

ثم قال تعالى : (قل ارأيتم ان اخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون (٤٦) ، قل ارأيتكم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون (٤٧) وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن واصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون (٤٨) والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون (٤٩)

ثم قال تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين اخبرونى ان أخـذ الله سمعكم فصرتم صما وابصاركم فصرتم عميا، وختم على قلوبكم، أى طبع عليها حتى لا تفقه شيئا، وهذه النعم الثلاث هى افضل ما أعطيه الانسان، و بها يدبر أمر معيشتـه، وبدونها يختل أمره ويبطل عمله، هل يستطيع أحـد من شركائكم كيف ما كانوا أن يرد عليكم هذه النعم التى سلبكم الله؟ الجواب معلوم، لا يستطيع أحد من المعبودين من دون الله، لا ملك مقرب ولا نبى مرسل ولا صالح ولا غيرهم أن يرد تلك النعم، وانما يقدر على ردها من أنعم بها ابتداء. ثم خاطب الله سبحانه نبيه ومن يصلح للخطـاب بعده بقوله، انظر كيف نصرف الآيات، أى نبين العلامات ونوضح الدلالات، ثم هم مع ذلك يصدفون أى يعرضون عنها اتبـاعا لأهوائهم وانقيادا الى شياطينهم. ثم قال تعالى: قل يا محمد، أرايتكم أخبرونى ان جاءكم عذاب الله مفاجئا وأنتم لا تشعرون، أو عيـانا تشاهدون مجيئه هل يهلك الا القوم الظالمون، أى المشركون و ينجو الموحدون كما قال تعالى فى هذه السورة نفسهـا (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون (٨٢) ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يرسل الرسل الى خلقه ليقترح عليهم المشركون ما شاءوا من المعجزات تعنتا فيظهروها لهم، لأن سنة الله لم تجر بذلك. وانمـا أرسلهم ليبشروا المؤمنين المتقين بسعادة الدنيا والآخرة، وينذروا الكافرين بشقـاء الدنيا والآخرة. فكل من آمن بما جاءت به الرسل كلهم ولم يرد منه شيئا واصلح، أى كان عمله مطابقا لايمانه، فلا خوف عليهم فيما يستقبلون من زمانهم فى هذه الحياة وفى دار البقـاء، ولاهم يحزنون على ما فاتهم أو خلفوه وراءهم فى الزمان الماضى. ثم قال تعالى والذين كذبوا بآياتنا، جحدوها وردوهـا يمسهم العذاب فى الدنيا والآخرة بسبب فسقهم، أى خروجهم عن طاعة الله وطاعة رسله.

ثم قال تعالى: قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان اتبع الا ما يوحى الى قل هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون (٥٠)

المعنى العام

ثم قال تعالى: قل يا محمد للمشركين وسائر المكذبين المتعنتين لا ادعى انى أملك خزائن الله أو أتصرف فيها ولا ادعى انى أعلم الغيب، وانما أعلم منه ما أطلعنى عليه ربى، ولا ادعى أنى ملك استغنى عما يحتاج اليه البشر من طعام وشراب وغيرهما، انما أنا بشر مثلكم، لا أختلف عنكم فى البشرية ومقتضياتها، ولكن الله أنعم على بالنبوة والرسالة، فلا أتبع الا وحيه، ولا اطيع الا أمره. ثم قال تعالى: قل يا محمد لهم، هل يستوى الاعمى والبصير؟ الجواب معلوم، لا يستويان أبدا. فاعمى البصر لا يبصر طريقه ولا ما حوله، وأعمى البصيرة شر منه، لا يبصر طريق الحق مع وضوحه، لأن هواه قد أعمى عين بصيرته. وأما البصير فانه يبصر طريق الحق، لأن الله شرح صدره فهو على نور من ربه. أفلا تتفكرون فى هذا الكلام الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. لا جرم لو تفكرتم فيه لأدركتم الحق واتبعتموه. وهذا كما قال تعالى: فى سورة الرعد أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولوا الالباب (١٩)

ثم قال: وأنذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون (٥١)

المعنى العام

ثم قال تعالى: وأنذر، أى حذر يا محمد بالقرآن المؤمنين بالبعث، لأن الانذار ينفعهم أكثر من غيرهم، الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم فيحاسبهم

ويمدهم وما لهم من ولى يتولاهم بالحماية ولا نصير ولا شفيع لهم عند الله . وقد اطلق الله نفى الشفاعة ، مع أن الكلام هنا فى شأن المؤمنين ، وقيده فى مواضع أخرى من الكتاب العزيز ، كقوله تعالى فى سورة البقرة من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه (٢٥٥) : وفى سورة الانبياء ولا يشفعون الا لمن ارتضى (٢٨) : وفى سورة سبأ ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له (٢٣) : وفى سورة النجم وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٢٦) : فالشفاعة عند أهل الحق مقيدة بقيدين ، أحدهما اذن الله للشافع ، والثانى رضاه عقيدة المشفوع له ، وهى التوحيد وسائر ما يجب اعتقاده .

وقد تقرر فى الشرع والعرف العام حمل المطلق على المقيد ، فلا تعارض بين آيات القرآن ، ولا بين القرآن والحديث الصحيح الذى يثبت الشفاعة . فالمنفى هو الشفاعة المطلقة ، كشفاعة أعز الناس عند الملك أو الرئيس ، كأبى الملك وأخيه وابنه وزوجته وصديقه وكبير وزرائه ، فان هؤلاء ، يجوز أن يشفعوا عنده بدون استئذان لما لهم من المنزلة عنده . ومن ذلك تعلم بطلان ما يحتج به الجهال من تشبيه الله عز وجل بملك فى اتخاذ الوسائط لقضاء الحاجات عنده . ولو تأملوا قليلا لعلموا ان هناك فروقا كثيرة بين الملك الحقيقى الذى لا ابتداء لملكه ولا انتهاء . والملك المخلوق العاجز الفقير الذى يلبس ثوب الملك بعد ان ينزع من غيره على سبيل العارية لمدة محدودة ، ثم ينزعه . فمن أظهر الفروق ، ان الملك العبد تخفى عليه حاجات الناس ولا يعرف مظلومهم من ظالمهم ولا المستحق منهم للاعانة من غير المستحق . والله تعالى لا يخفى عليه شىء من أحوال عباده ، انه يعلم الجهر وما يخفى . ومنها ان الملك العبد قد يعلم حاجات المحتاج وظلم المظلوم ، ولكن قد يكون قلبه قاسيا فيحتاج الى من يعظه حتى يلين قلبه ، والله سبحانه أرحم الراحمين .

ومنها ان الملك العبد يجوز عليه ان يتعمد ظلم الرعية، فيحتاج الى من يذكره ويخوفه من عاقبة الظلم. ومنها ان الملك العبد قد يكون عالما بحاجة المحتاج وظلم المظلوم وحق المستحق فيتعمد منعه حتى يأتى احد الشفعاء الذين لا يستطيع أن يرد شفاعتهم، لأنه يحبهم، وإذا غضبوا عليه يتألم لغضبهم فيقضى الحاجة وهو كاره. ومنها ان بعض رؤساء الاجناد ورؤساء الدولة اذا شفع عنده لا يستطيع أن يرد شفاعته اتقاء لغضبه الذى قد يفضى به الى الانحراف ثم الى شق عصا الطاعة، فيكون قضاء الحاجة التى شفع فيها من باب المداراة، والله سبحانه منزه عن ذلك كله. وقوله سبحانه: لعلهم يتقون ترجية من الله تعالى لانتفاعهم بالانذار وتقواهم لله، كما قال تعالى: فى سورة الذاريات وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (٥٥)

ثم قال تعالى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين (٥٢)

المعنى العام

سبب نزول الآية

روى مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص قال، كنا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبى ﷺ اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه، فانزل الله عز وجل، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه. قوله تعالى:

ولا تطرد الخ ، الخطاب للنبى ﷺ نهاه الله عن طرد الضعفاء لتأليف الرؤساء لما هم بذلك ، ووصفهم الله ثنيا عليهم بأنهم يدعونه فى الصباح وفى العشى يريدون وجهه بدعائهم مخلصين هاهم لله بلا رياء ولا سمعة ولا غرض من حظوظ النفس. ومعنى الدعاء هنا الصلوات الخمس كلها ، لأن بعضها يكون فى الصباح وبعضها يكون فى المساء. وقد يراد بالدعاء العبادات كلها كما قال تعالى : فى سورة المؤمن وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) وهم النبي ﷺ بطرد اولئك الضعفاء ليس من المعاصى البته ، وقد توهم ذلك بعضهم ، وانما هو من باب الاجتهاد فى اداء الرسالة ، لأن النبى ﷺ كان يهتم بدعوة الرؤساء ، لأن الدهماء تبع لهم ، فاهتداء رئيس واحد يؤدى الى اهتداء اتباعه ، وقد يكثر عددهم حتى يبلغ الآلاف ، واهتداء رجل ضعيف لا يتعداه الى غيره ، وان تعداه لم يزد على زوجته وأولاده . ولم يهم النبى ﷺ بطرد اولئك الضعفاء من مجلسه طردا مؤبدا ، وانما هم أن يخصص للرؤساء مجلسا خاصا بهم ، لترفعهم عن مجالسة الضعفاء ، فنهاه الله عن طردهم واخبره ان ما يرجى من الخير فى تعليمهم أعظم مما يرجى من دعوة الرؤساء. يوضح ذلك ما نزل فى شأن ابن أم مكتوم . وهو قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم عبس وتولى (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك الا يزكى (٧) واما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠) وقوله تعالى : ما عليك من حسابهم من شىء الخ ، يعنى ليس عليك يا محمد حساب هؤلاء الضعفاء ، اذ لا تعلم مقدار ايمانهم ومنزلتهم عند الله واعمالهم الصالحة ، فلعلها أعظم من ايمان الرؤساء واعمالهم المرجوة بعد اهتدائهم ، كما انه ليس عليهم من حسابك شىء ، لأن

حساب الخلق كلهم ، سواء منهم الاعلون منزلة كالرسل والانبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، والادنون منهم كعامة المؤمنين ، انما هو على الله ، فليس عليك إلا البلاغ وعليهم الطاعة والاتباع . وهذا كما قال تعالى : فى سورة الرعد فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب (٤٠) ومثل ذلك قوله تعالى : فى سورة الشعراء حكاية عن قوم نوح قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون (١١١) قال وما علمى بما كانوا يعملون (١١٢) ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون (١١٣) وما أنا بطارد المؤمنين (١١٤) ان أنا الا نذير مبين (١١٥) صدق الله العظيم تشابهت قلوب الكافرين الأولين والآخرين فى كل زمان ومكان ، الجاه والمال يطغيان ذويهما فيتكبرون عن مجالسة الضعفاء . والضعفاء هم اتباع الأنبياء والأئمة المصلحين ، وهم الذين ينصرون الحق ويجاهدون فى سبيل الله . وقوله تعالى : فى سورة الكهف واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا (٢٨) أمر الله نبيه أن يحبس نفسه مع الذين يعبدون الله تعالى ويذكرونه بقلوبهم والسنتهم لا يقصدون بذلك إلا طلب رضاه ، ونهاه أن يطيع الغافلين عن ذكره المتبعين لاهوائهم المتعدين لحدود الله . وقوله تعالى : فتطردهم فتكون من الظالمين . معناه ، لو كان عليك حسابهم لجاز لك ان تطردهم ، اذ لا يحق لأحد ان يطرد أحدا الا إذا كان الطارد هو المتصرف فى المطرود ، وهو الذى يحاسبه على عمله فيثيبه أو يعذبه ، ولو طردتهم لكنت من الظالمين ، لأن الظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه : ويمكن أن يقال ان الظلم هو كل ما يكرهه الله سبحانه ، والله يكره طردهم ويحب الكون معهم واكرامهم . وقد علم الله سبحانه ان رسوله المعصوم لا يطردهم ، وانما عبر بهذه العبارة التى فيها شدة وتوكيد تحذيرا للمؤمنين

من احتقار الضعفاء. قال رسول الله ﷺ وانما تنصرون وترزقون بضعفائكم.

فحصر النبي ﷺ أسباب النصر وسعة الرزق فى اعانة الضعفاء والاهتمام بشأنهم واعطائهم حقوقهم وافية. ونحن نشاهد فى هذا الزمان أن كل أمة تعتنى بحقوق الضعفاء من المساكين والفقراء واليتامى وذوى العاهات كالزمنى والعمى والصم البكم وسائر العاجزين وذوى الامراض المزمنة ينصرها الله ويوسع رزقها. وكل أمة تضيع حقوق الضعفاء يخذلها الله ويضيق رزقها.

ثم قال تعالى: وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين (٥٣)

المعنى العام

وقد أعجبنى كلام الخازن فى تفسير هذه الآية، فآثرت نقله بنصه. قال الخازن: وكذلك فتنا بعضهم ببعض يعنى وكذلك ابتلينا الغنى بالفقير والفقير بالغنى، والشريف بالوضيع، والوضيع بالشريف. فكل احد مبتلى بضده، فكان ابتلاء الأغنياء الشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم إلى الاسلام وتقدموا عليهم، فامتنعوا من الدخول فى الاسلام لذلك، فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم. وأما فتنة الفقراء بالاغنياء، فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم، فكان ذلك فتنة لهم، (ليقولوا) يعنى، الاغنياء والشرفاء والرؤساء (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) يعنى، من على الفقراء والضعفاء بالاسلام ومتابعة الرسول ﷺ، وهذا اعتراض من الكفار على الله تعالى، فأجابهم بقوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) يعنى انه تعالى اعلم بخلقه وباحوالهم واعلم بالشاكرين من الكافرين. ومثل هذا ما حكى الله عن قوم نوح فى سورة هود: (فقال الملأ الذين كفروا من

قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنـــا بادى الرأى وما نرى لكم علينـــا من فضل بل نظنكم كاذبين (٢٧) زعم الرؤساء والأشراف الطاغون بجاههم ومالهم أنه لا فضل لبشر على بشر ، ونوح بشر ، فكيف تجب طاعته على من هو مثله فى البشرية ، ولا سيما وقد أوتى من الجاه والمال مالم يؤته نوح والذين آمنوا معه ، وقالوا ما نرى أحدا اتبعك من الاشراف ، وانما اتبعك الضعفاء والفقراء ، وهم سفلتنا وأخساؤنا ، وانمـــا اتبعوك بادى الرأى لأول رأى بدالهم ولم يتعمقوا فى التفكير ، ولو فكروا ونظروا بعقولهم لوجـــدوه بشرا مثلهم لا فضل له عليهم فلم يتبعوه ولم يؤمنوا به . وقولهم : بل نظنكم كاذبين ، خطـــاب لنوح ومن آمن معه ، فنوح بزعمهم كاذب فى ادعاء الرسالة ، والمؤمنون معه كاذبون فى تصديقه وكذلك قال بنو اسرائيل لنبيهم حين سألوه أن يولى عليهم ملكا فأخبرهم ان الله قد بعث لهم طالوت ملكا ، قالوا انى يكون له الملك علينـــا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ، قال : إن اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء البقرة (٢٤٧) وكما حكى الله عن المشركين فى سورة الزخرف : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (٣١) استبعد هؤلاء المشركون الجـــاهلون من أهل مكة أن ينزل الله القرآن على محمد ، وهو رجل فقير ، ويترك أعيان مكة والطائف كالوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود وأمثالهما ، فرد الله عليهم بقوله (أهم يقسمون رحمـــة ربك) فالجهال الطغاة فى كل زمان ومكان انما يزنون الناس بالمال والرئاسة ، وهو ميزان فاسد . قال تعالى : فى سورة سبأ (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عنـــدنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون (٣٧) وقال تعالى : فى سورة المؤمن (أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل

لا يشعرون (٥٤ - ٥٥) وكذلك جاء فى صحيح البخارى من حديث ابن عباس ان هرقل عظيم الروم سأل أبا سفيان ، فيما سأله ، عن أحوال النبى : فاشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال أبو سفيان قلت ، بل ضعفاؤهم ، قال : هم اتباع الرسل . والحاصل كما قال ابن كثير أن مشركى قريش كانوا يسخرون بمن آمن بالنبى من ضعفائهم ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون ، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا . فرد الله عليهم بقوله ، أليس الله بأعلم بالشاكرين . يعنى ان الايمان بالله ورسوله نعمة عظيمة لا يعطاها إلا من يقوم بشكرها ، والله أعلم بالشاكرين فيخصهم بالنعم العظمى ، وهو أعلم بالكافرين فيحرمهم منها . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم . وقال تعالى : فى سورة الاحقاف (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه (١١) أى لو كان الايمان بمحمد وما جاء به خيرا ما سبقنا اليه عبيدنا وحلفاؤنا وفقراؤنا ، وكيف يهتدى هؤلاء مع فقرهم وضعفهم وحقارتهم إلى ما لا نهتدى اليه نحن مع جاهنا ومالنا وعظمتنا ؟ وقال تعالى فى سورة مريم (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (٧٣) معناه ان الرؤساء والاغنياء من المشركين قالوا للمؤمنين أينا أعلى مقاما وأحسن مجلسا ، فرد الله عليهم بقوله ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا . يقول سبحانه ، ان اعتز هؤلاء بجاههم ومالهم فقد أهلكنا أجيالا كثيرة هم أحسن منهم منظرا وأكثر مالا وأفخر أثاثا ، فلم يغن عنهم ذلك شيئا .

ثم قال تعالى : وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم

على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم (٥٤) وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين (٥٥)

المعنى العام

قوله تعالى : وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا إلخ . هذه من آيات التبشير يعنى إذا جاءك يا محمد الذين يصدقون الرسل كلهم فيما جاءوا به من الآيات ، ولا سيما خاتمهم محمدا ﷺ فبشرهم وسلم عليهم وأخبرهم بسعة رحمة الله وانه أوجبها على نفسه كرما وفضلا أن كل من عمل معصية بسبب غلبة الجهل ، وهو السفه وعدم العمل بمقتضى العقل ، ثم تاب توبة نصوحا فان الله يغفر ذنبه ويرحمه . أخرج مسلم عن سلمان عن النبي ﷺ أنه قال ، ان لله عز وجل ، مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة . وقوله تعالى : وكذلك نفصل الآيات إلخ . أى كما بينا لك يا محمد براهين التوحيد نبين لك سائر المسائل التى تتوقف سعادة أمتك العاجلة والآجلة عليها لتكون على علم بسبيل الخير كلها ولتحيط علما بطريق المجرمين فتحذر أمتك سبيلهم . قرئ هذا الفعل بالتاء ونصب السبيل ، وقرئ بالتاء والياء ورفع السبيل . والمعنى على قراءة الرفع ولتظهر لك ولمن اتبعك سبيل المجرمين ، فان من عرف الشر توقاه قال الشاعر :

عرفت الشر لا للشر ، لكن لتوقيه ... ومن لم يعرف الشر من الناس يقع فيه

وأما على قراءة النصب ، فالمعنى ولتعرف طريق المجرمين ، فتحذر ، أمتك من سلوكه .

ثم قال تعالى : قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ؛ قل

لا أتبع أهواءكم، قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين (٥٦) قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به، ان الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين (٥٧) قل لو أن عندى ما تستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم، والله أعلم بالظالمين (٥٨)

المعنى العام

قوله سبحانه: قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون إلخ. أمر من الله تعالى لرسوله أن يخبر المشركين بأن الله نهاه عن عبادة الذين يعبدهم المشركون كيفما كانوا، سواء أكانوا ملائكة أم انبياء أم صالحين أم غيرهم. ونهى الله سبحانه عن ذلك جميع الرسل وأممهم بواسطتهم، وأقام لهم البراهين على فساد عبادة المخلوق وبطلانها وانها تنافى العقل. ومثل هذا قوله تعالى: فى سورة المؤمن (قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦) وأمره سبحانه أن يقول لهم، لا أتبع أهواءكم بفعل ما تشتهون من مألوفاتكم وعاداتكم الباطلة من الشرك بالله والظلم، ولو فعلت ذلك لضللت، فقد عصمنى الله من الضلال وجعلنى أول المهتدين من هذه الأمة وأول الهادين لها. وانما اتبع ما يوحى الى من ربى، وأبلغكم رسالته، فمن قبلها سعد وفاز، ومن ردها هلك. ثم أمره سبحانه أن يقول لهم، لو أن عندى ما تستعجلون به من العذاب أو الآيات أو هما معا لأبديته لكم وقضى الأمر بهلاككم، والله أعلم بالظالمين المشركين المعاندين لرسوله المعرضين عن ذكره، وهو الذى سيجازيهم. وقد روى البخارى ومسلم من حديث عائشة انها قالت لرسول الله ﷺ، يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، فقال: لقد لقيت من قومك

وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبدياليل بن عبدكلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، انطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم استفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فاذا أنا بسحابة قد ظللتنى ، فنظرت فاذا فيها جبريل عليه السلام ، فنادانى فقـال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث اليك ملك الجبال لتـأمره بما شئت فيهم ، قال : فنــادانى ملك الجبال وسلم على ، ثم قال يا محمد ان الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثنى ربك اليك لتأمرنى بأمرك ، فما شئت ، ان شئت اطبقت عليهم الأخشبين ، فقال رسول الله ﷺ ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا . والجمع بين هذا الحديث وبين مدلول الآية ، أنه لو كان عند النبى ﷺ ما يستعجلون به من العذاب والآيات ، لأوقعه بهم حين يضيق صدره ويشتد أذاهم وعنـادهم وتعديهم له ، ولكن ذلك بيد الله ، وهو لا يريد أن يطلب من الله لهم إلا الهداية والمغفرة ، لأن الله أرسله رحمة للعالمين ، ولم يرسله عذابا .

ثم قال تعالى : وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين (٥٩)

المعنى العام

قد فسر النبى ﷺ هذه الآية بنفسه ، فروى البخـارى من حديث عبد الله ابن عمر ، بان رسول الله ﷺ قال : مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، ان الله عنـده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ما ذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير . وقال القسطلانى

فى شرح هذا الحديث، قال الزجاجى، من زعم ان أحدا غير الله تعالى يعلم شيئا من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن العظيم. ومفاتح الغيب جمع مفتح بفتح الميم، هى خزائنه. ولما كانت الأرض كلها تنقسم الى قسمين لا ثالث لهما، قسم البر وقسم البحر، أخبر سبحانه وتعالى أنه يعلم ما فى البر وما فى البحر علما تفصيليا محيطا بكل شىء من الموجودات وأحوالها كلها، ويعلم ما فى البحر كذلك، فلا يخفى عليه شىء. وهذا العلم المحيط خاص به سبحانه. وقوله: ولا حبة فى ظلمات الأرض، واحدة الحب، وهو أنواع كثيرة، منها ما يكون غذاء الانسان والحيوان، ومنها ما يكون دواء. وقوله: ولا رطب ولا يابس، يعم الأشياء كلها، لأنها لا تخرج عن الرطوبة واليبس. وقوله: إلا فى كتاب مبين، هو علم الله، ويقال انه اللوح المحفوظ.

ثم قال تعالى: وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه فيقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون (٦٠)

المفردات

التوفى، هنا توفى نوم، ويطلق على الموت، قال تعالى: فى سورة الزمر (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٤٢) قال البيضاوى أى يقبضها من الابدان، بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها، اما ظاهرا وباطنا، وذلك عند الموت، أو ظاهرا لا باطنا، وهو فى النوم. جرحتم كسبتم. يبعثكم يوقظكم.

المعنى العام

يقول تعالى: وهو أى الله وحده الذى يقبض أرواحكم بالليل عند النوم فى الظاهر، ويعلم ما كسبتم فى النهار من خير وشر. ثم يوقظكم فى النهار ليقضى أجل مسمى، وهو مدة العمر. ثم اليه مرجعكم بالبعث فيخبركم بجميع أعمالكم ويجزيكم عليها، ان خيرا فخير، وان شرا فشر. وكان رسول الله ﷺ يقول عند النوم باسمك رب، وضعت جنبى وباسمك أرفعه، ان امسكت نفسى فاغفر لها، وان ارسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. وفى هذه الآية وآية الزمر والحديث الصحيح إثبات التصرف له فى جميع خلقه، ونفيه عن غيره كائنا من كان. وهو فى غاية الوضوح، فسبحان من طبع على قلوب المشركين الذين يقرأون القرآن ويعرفون اللغة العربية، وعلى قلوبهم اقفال؛ فلا يفهمون هذا المعنى. قال تعالى: فى سورة الاسراء وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه، وفى آذانهم وقرا، واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا (٤٦) سبحانه يضل من يشاء ويهدى من يشاء.

ثم قال تعالى: وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة، حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون (٦١) ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٦٢)

المعنى العام

قوله تعالى: وهو القاهر فوق عباده، الآية. كل شىء من العوالم داخل تحت قهر الله وخاضع له. وهذا كقوله تعالى: فى سورة النحل ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملئكة وهم لا يستكبرون (٤٩). يخافون ربهم

من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون (٥٠) قال صاحب فتح البيان، والمعنى، يسجد لله ما فى السموات وما فى الارض، والملئكة وهم جميعا لا يستكبرون عن السجود (يخافون) أى حال كونهم خائفين (ربهم من فوقهم) أو جملة مستأنفة لبيان نفى استكبارهم. ومن آثار الخوف عدم الاستكبار، أى يخافون عذاب ربهم كائنا من فوقهم، أو يخافون ربهم حال كونه من فوقهم عاليا عليهم علو الرتبة والمكانة والقدرة بائنا عنهم بالاستواء على العرش. ويرسل عليكم حفظة هم الملئكة المكلفون بكتابة أعمال العباد كما قال تعالى: فى سورة الانفطار (وان عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون (١٠، ١١، ١٢). وقوله تعالى: حتى إذا جاء أحدكم الموت، أى انتهى أجله توفته رسلنا، وهم الملئكة يقبضون روحه، وهم لا يفرطون بتوان أو تأخير فى ما حد الله لهم. ثم ردوا، أى العباد كلهم الى الله بالبعث، وهو سيدهم الحق، وسيادة غيره مجازية محدودة. الا له، لا لغيره، الحكم وهو أسرع الحاسبين، لأنه لا يحتاج فى الحساب الى أعمال فكر لكمال علمه واحاطته.

ثم قال تعالى: قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٦٣) قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم انتم تشركون (٦٤)

المفردات

التضرع، إظهار الضراعة، وهى الذلة. فالمراد بالتضرع، التذلل لله تعالى فى وقت الدعاء.

المعنى العام

كان المشركون فى الجاهلية الاولى يوحدون الله ويخلصون الدعاء له فى الشدائد لعلمهم ان الشرك لا يرضاه الله ، فاذا زالت الشدة عادوا الى الشرك . أما مشركو هذا الزمان فانهم يشركون بالله ويدعون معه غيره فى الشدة والرخاء ، بل كثيرا ما يخلصون الدعاء لشركائهم ولا يذكرون الله أصلا ، هذا باللسان ، وأما القلب فاعتماده على غير الله ، بدليل ان الواحد منهم يضع الزكاة وسائر الحقوق المالية . واذا نذر لولى من الأولياء نذرا أو التزم أن يعمل له احتفالا أو يذبح له ذبيحة لا يكاد يخلف ذلك أبدا ، لأنه يخاف ذلك الولى الذى اتخذه من دون ما لا يخاف الله ويرجو منه من الخير ودفع الشر ما لا يرجو من الله ، ولذلك إذا استحلفته بالله يحلف الف مرة ، وإذا استحلفته بذلك الولى الذى جعله لله ندا لا يحلف أبدا . وإذا كان له حق على مشرك آخر وحلف له بالله لا يصدقه حتى يحلف بالولى . فقد تمادوا فى الشرك حتى خرجوا منه الى إخلاص العبادة لشركائهم ، فنعوذ بالله من الخذلان واستحواذ الشيطان . قال تعالى مخاطبا رسوله صلوات الله وسلامه عليه : قل يا محمد للمشركين من ينجيكم من ظلمات البر والبحر وشدائدهما ومهالكهما تسألونه النجاة مظهرين التذلل بألسنتكم ومضمرين بقلوبكم قائلين فى تضرعكم يا ربنا فرج عنا هذا الكرب وأنجنا من هذه المهلكة فوعزتك وجلالك لئن أنجيتنا من هذه المصيبة لنكونن من الشاكرين لك ولا نشرك بك أحدا . ثم قال تعالى : مخاطبا رسوله ، قل لهم يا محمد ، الله ينجيكم منها وحده ويفرجها عنكم ثم انتم بعد ذلك تشركون به . وفى هذا الكلام من التوبيخ والتبكيت ما لا يخفى على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ثم قال تعالى : قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون (٦٥)

المفردات

يلبسكم شيعا ، يخلطكم فرقا متحزبين على أهواء شتى فينشب القتال بينكم .

المعنى العام

روى الأئمة عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة فى تفسير هذه الآية ، لا يتسع لها المقام ، وسأذكر هنا حديثا واحدا يجمع أكثر ما فيها من المعانى . أخرج الامام مسلم من حديث ثوبان ، ان رسول الله ﷺ قال : ان الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان امتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها . وأعطيت الكنزين ، الأحمر والأبيض . وانى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة عامة ، وان لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم ، وان ربى قال : يا محمد ، إذا قضيت قضاء فانه لا يرد . وانى أعطيتك لأمتك ان لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . ولو اجتمع عليهم من باقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ، ويسبي بعضهم بعضا . ورواه البرقانى فى صحيحه وزاد وانما أخاف على أمتى الأئمة المضلين ، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد فئام من امتى الأوثان ، وانه يكون فى أمتى كذابون ثلاثون ، كل يزعم انه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدى . ولا تزال

طائفة من أمتى على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله تبارك وتعالى . كذا فى فتح المجيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله . ونقل ابن كثير نحوه فى تفسير هـــذه الآية من رواية أحمد بسنده إلى شداد بن أوس عن النبى ﷺ . وقوله سبحانه ، أنظر كيف نصرف الآيات ، أى نبينها ونوضحها لعلهم يفقهون ، أى يفقهون حجج الله وبراهينه . وكذب به قومك ، أى العرب عامـــة ، وقريش خاصة فى أول الاسلام ، وهو الحق الذى لا ريب فيه ، و سيتحقق و يظهر قل لهم يا محمد ، لست عليكم بحفيظ فأجبركم على الايمـــان به أو أعاقبكم على التكذيب ، انمـــا أنا منذر ومبلغ ، وحسابكم على الله . قال ابن كثير ، قال زيد بن أسلم ، لما نزلت قل هو القـــادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ، الآية . قال رسول الله ﷺ لا ترجعوا بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف ، قالوا ونحن نشهد ان لا اله إلا الله و أنك رسول الله ، قال نعم . فقـــال بعضهم ، لا يكون هذا أبدا أن يقتل بعضنا بعضا ، ونحن مسلمون . فنزلت ، أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ، وكذب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير .

ثم قال تعالى : وكذب به قومك وهو الحق ، قل لست عليكم بوكيل (٦٦) لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون (٦٧) وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وأما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨) وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ، ولكن ذكرى لعلهم يتقون (٦٩)

المعنى العام

قوله تعالى: لكل نبأ مستقر الخ. أى لكل خبر حقيقة ووقوع كما قال تعالى: فى سورة ص ولتعلمن نبأه بعد حين (٨٨) وقوله تعالى: فى سورة الرعد لكل أجل كتاب (٣٨). وقال تعالى: فى سورة فصلت (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد (٢٥) وقوله تعالى: وسوف تعلمون، هو كقوله تعالى: فى آخر سورة طه (قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى (١٣٦) قوله تعالى: وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا الخ، نهى الله رسوله ﷺ وجميع من اتبعه وآمن به عن القعود والاجتماع مع من يخوض فى آيات الله بالتكذيب والاستهزاء وأوجب عليهم أن يفارقوهم ما داموا فى ذلك الخوض إظهارا لسخطهم على ذلك وإنكارا عليهم. وقوله تعالى: وأما ينسينك الشيطان الخ يعنى اذا نسى المؤمن وجلس مع اولئك فلا حرج عليه، لأن الله لا يؤاخذ على النسيان، ولكن متى ذكر وجب عليه أن يفارقهم، لأنهم ظالمون بسبب كفرهم وطعنهم فى كتاب الله. ومن رضى بالكفر وشارك أهله صار مثلهم. وهذه هى الآية المشار اليها فى سورة النساء بقوله تعالى: (وقد نزل عليكم فى الكتاب ان إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره، انكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا (١٤٠). وقوله تعالى: وما على الذين يتقون من حسابهم الخ. لما نزلت هذه الآية كان المسلمون إذا ذهبوا إلى المسجد الحرام بمكة يسمعون المشركين يخوضون فى آيات الله بالتكذيب والاستهزاء فيخرجون من ذلك إذا أرادوا الطواف بالبيت فاخبر الله تعالى ان كل

مؤمن بذل جهده فى تقوى الله لا يأثم ، ولو سمع المشركين يستهزؤن بآيات الله اذا كان عاجزا عن تغيير المنكر باليد واللسان واضطر الى الاجتماع معهم وكره خوضهم بقلبه ، اذ لا يكلف الله نفسا الا وسعها . واما اذا كان قادرا على الكلام فلا يسعه السكوت ، بل ينبغى له أن يذكرهم . فان لم تنفع الذكرى أنكر عليهم ما وسعه الانكار . ولا تنافى بين هذه الآية وآية النساء ، الا أن هذه مكية ، نزلت حين كان المؤمنون مستضعفين . وتلك مدنية نزلت فى وقت قوة الاسلام .

ثم قال تعالى : وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها اولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون (٧٠)

المفردات

الابسال ، الضيم والمنع ، ابسلوا ، حرموا . وتبسل تحرم من الثواب . العدل ، الفداء ، وأصله المساواة .

المعنى العام

قوله تعالى : وذر الذين اتخذوا دينهم ، الخ . يعنى أترك يا محمد الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، أى بنوا دينهم على أمور ليس فيها منفعة دنيوية ولا أخروية ، بل فيها ضرر محقق . وقد نظرت فى الاديان المخالفة للاسلام فوجدتها حقيقة لهوا ولعبا ، فهى مبنية على الشرك بالله وتشييد المعابد وزخرفتها واعداد المآكل والمشارب فى أيام مخصوصة . وفى مقدمة تلك المشارب الخمر التى هى أم الخبائث واجتماع الرجال والنساء على الغناء وآلة اللهو . ومن انحرف من المسلمين عن سنة

التي يتشبه بأولئك ويسير بسيرتهم ، فتحقق ان كل من لا يدين بالاسلام الصحيح فقد اتخذ دينه لعبا ولهوا. قال تعالى: وذكر به ، أى بالقرآن ، لئلا تبسل نفس ، اى تحرم من الثواب وتسلم للعذاب بما كسبت من الشرك. ليس لها من دون الله ولى اى قريب يدافع عنهـــا ولا شفيع يشفع لهـا ، لأنها أشركت بالله ، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظـالمين من أنصار. وان تعدل كل عدل ، أى تبذل كل شيء من الفداء لا يقبل منهـا. اولئك الذين أبسلوا حرموا من الثواب وأسلموا للعذاب بما كسبوا من الكفر لهم فى جهنم شراب من حميم يصهر به ما فى بطونهم وعذاب اليم شديد موجع بما كانوا يكفرون.

ثم قال تعالى: قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنـــا ولا يضرنا ونرد على أعقابنـــا بعد اذ هدانا الله كالذى استهوته الشيـــاطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنـا ، قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العـالمين (٧١)

المعنى العام

لما قال المشركون للنبي ﷺ ، هلم فاعبد معنا آلهتنا أمره الله سبحانه أن يقول لهم أندعو من دون الله آلهة مخلوقة عبدتموها جهلا وضلة لا تنفع من عبدها ولا تضر من كفر بها. ونرد على أعقابنا ، أى نرجع الى الشرك ، والكلام بحسب المؤمنين الذين تركوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله ، بعد اذ هدانا الله الى الاسلام فنكون كالذى استهوته الشياطين ، أى أضلته لتهلكه ، فصار يخبط فى الأرض سائرا على غير هدى حيران لا يعرف طريقا له أصحاب على المحجة البيضاء يدعونه الى الهدى ، الى طريق السلامة والسعادة قائلين ائتنا لتسلم من الهلاك فلم يستجب لهم ،

فذلك مثل من ارتد عن الاسلام بعد أن هداه الله اليه. ثم قال تعالى: قل يا محمد ان الهدى، أى طريق الحق والأمن والسعادة، هو طريق الله الذى هدى اليه رسوله والمؤمنين. فكيف نتركه، وقد أمرنا الله ان نسلم وجوهنا وقلوبنا وأنفسنا له ونتبع رضوانه، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم.

ثم قال تعالى: وان أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى اليه تحشرون (٧٢) وهو الذى خلق السموات و الأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير (٧٣)

المفردات

الحكيم هو الذى يعلم الاشياء على حقيقتها و يوجدها فى غاية الاحكام. وهو بهذا المعنى خاص بالله تعالى. والحكيم من الناس من يعرف الاشياء حسبما يتسع له علم البشر ويفعل الخير ويدل عليه. والخبير هو العليم.

المعنى العام

قوله تعالى: وأن أقيموا الصلاة، عطف على قوله لنسلم لرب العالمين، فالاسلام هو توحيد الله بالقلب واللسان بالاعتقاد والعمل: والصلاة أفضل الاعمال وأهمها. والمحافظة عليها مع كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر دليل على صدق المسلم فى اسلامه. والانتفاع بالصلاة هو التقوى، فلذلك قال تعالى واتقوه، أى امتثلوا جميع ما أمركم به واجتنبوا جميع ما نهاكم عنه. وهو الذى اليه تحشرون، أى تبعثون اليه وحده فيجازيكم على أعمالكم. وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق أى بالحكمة والاتقان فى غاية الكمال. ويوم يقول كن فيكون. و يوم القيامة يقول

الله سبحانه لكل شيء يريد أن يكون من البعث والحشر وما يكون فيهما، كن فيكون ما أراده الله. قوله الحق فلا يتخلف عن أمره شيء ولا يسبقه شيء، بل كل شيء خاضع له، لأن الملك كله له وليس لغيره منه شيء لا حقيقة ولا مجازا، يوم ينفخ فى الصور، وهو القرن ينفخ فيه الملك فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله. ثم ينفخ فيه نفخة أخرى فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض، إلا من شاء الله ويموت كل شيء ولا يبقى إلا الله كما قال تعالى فى سورة القصص: كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون (٨٨) وقال تعالى فى سورة الرحمن: كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام (٢٦، ٢٧). قوله تعالى: عالم الغيب والشهادة. أى ما غاب عن خلقه وما يشاهدونه ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وهو الحكيم فيما خلقه وفيما فعله وفيما شرعه. الخبير العليم.

ثم قال تعالى: واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين (٧٤) وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين (٧٥) فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى، فلما أفل قال لا أحب الآفلين (٧٦) فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل، قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين (٧٧) فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم انى برئ مما تشركون (٧٨) انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين (٧٩)

المفردات

الملكوت ، مصدر ملك ، كالملك ، ومثله رحموت من رحم ورهبوت من رهب . جن الليل ، ستر كل شئ بظلامه . أفل ، النيرغاب . بزغ ، طلع وانتشر ضوءه ، الصنم : كل معبود على شكل انسان أو حيوان .

المعنى العام

ثم قال سبحانه وتعالى : حاكيا من قصة ابراهيم ما فيه العبرة والارشاد الى معرفة الحق بدليله واقامة البرهان على توحيده وتنزيهه ، واذ قال ابراهيم لابيه آزر . وجاء فى الأخبار أن له اسما آخر ، وهو تسارح . وما قيل ان آزر ليس اسمه ، وانه اسم صنم لا يصح . والذى ذهب اليه ابن جرير وغيره من محقق السلف أن آزر اسم حقيقى له . أتتخذ أصناما آلهة ، استفهام انكارى ، أى كيف تتخذ الاصنام التى صنعها الناس بايديهم آلهة ، وهذا كما قال تعالى حكاية عن ابراهيم أيضا فى سورة الصافات : قال أتعبدون ما تنحتون ، (٩٥) والله خلقكم وما تعملون (٩٦) يعنى كيف تعبدون ما تنحتونه من التماثيل ، والله خلقكم وخلق تلك الاحجار التى تنحتون منها التماثيل ، والمخلوق لا يستحق العبادة لعجزه وفقره ، وقال تعالى فى سورة مريم : واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا (٤١) اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا (٤٢) يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى اهدك صراطا سويا (٤٣) يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا (٤٤) يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا (٤٥) قال أراغب أنت عن آلهتى ، يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا (٤٦) قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان

بى حفيا (٤٧) واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا (٤٨) فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا (٤٩) ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا (٥٠)

وقال تعالى فى سورة الزخرف : (وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فانه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون (٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) وقال تعالى فى سورة ابراهيم : (وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس (٢٥ ، ٢٦). صدق الله العظيم وصدق عبده ورسوله ابراهيم ، ان الاصنام والأوثان اضللن كثيرا من النــاس فى كل زمان ومكان . ولم يضللنهم بكونهن احجارا أو رخاما أو ذهبــا أو شمسا أو قمرا أو نارا أو ماء أو قبورا أو قبابا أو أشجارا أو أكواما من الحجارة أو أشخاصا أحياء أو أمواتا أو دواب ، وإنما أيست عليهم الشياطين فاوهمتهم ، ثم اقنعتهم ان تلك الأشياء قد حل فيها سر الألوهية ، وهو ما يسميه المخارفة (بركة) فهذا السر عندهم يجوزان يحل فى كل شىء ، ومتى حل فى شىء وجب تقديسه وعبادته واصبح يضر وينفع ، فلو أن سادنا أخذ احجارا من جبل وبنى بها قبة وضربهــا على قبر ، سواء أكانت فيــه جثة أم لا . وسواء أكانت تلك الجثة جثة صالح أو طالح أو حيوان . فاذا وضع على ذلك الضريح تابوتا وستارا من حرير وعلق المصابيح الثمينة والثريات وفرش أرض القبة بالزرابى وملأ جوها طيبــا بالبخور وغيره وتزيا بزى المشايخ بتفخيم العمامة وتكويرها واطالة اللحية وشعر الرأس ولبس الثياب الفضفاضة ، وأخذ يحكى حكايات

تثبت ان ذلك المدفون له كرامات وانه يقضي الحاجات يتهافت عليه عباد الأوثان، ويأتونه من كل مكان. فما شاء من هدايا ونذور وشمع وبخور وثيران تنحر ومواسم يختلط فيها الرجال بالنساء والحابل بالنابل. وهذا أصل عبادة الاصنام والأوثان قديما وحديثا. وبعض المضلين من الذين يسمون أنفسهم أو تسميهم العامة علماء يزيدونهم ضلالا، فيسمون ذلك الشرك كرامات الأولياء، ويسمون كل وثن وليا، وينسبون ذلك الوثن إلى اسم نبي، كمقام النبي جرجيس في الموصل والنبي يونس بقرب الموصل في خرائب نينوى والنبي شيث في كركوك. والتحقيق أنه لا يوجد قبر نبي معلوم إلا قبر نبينا محمد ﷺ. وأما قبر الخليل ابراهيم فليس بمعلوم بالتعيين، إلا أنه دفن بقرب المكان المنسوب اليه في الاردن. ومن هذا القبيل ضريح النبي زكريا في قلب جامع بني أمية بدمشق، فانك ترى المصلين يصلون، وإلى جانبهم العابدين والعابدات والطائفين والطائفات بذلك الوثن المنسوب كذبا إلى ذلك النبي. ولو فرضنا أنه مدفون هناك ما جاز أن يتخذ قبره وثنا ولا يبنى عليه ولا يطاف به ولا ينذر له ولا يعبد بأي نوع من أنواع العبادة. روى مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار مرسلا أن النبي ﷺ قال، اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. ووصله البزار عن أبي سعيد الخدري. وصححه ابن عبد البر وغيره. فلولا إن الله استجاب دعاء رسوله وصانه بالجدران الثلاثة التي بنيت حول حجرته في زمان بني أمية في خلافة الوليد بن عبد الملك لتوصل الجهال إلى اتخاذ قبره وثنا ولعبدوه من دون الله. وهذه من المعجزات العظام. ويرحم الله الامام ابن القيم إذ يقول في نونيته.

ولقد نهانا أن نصير قبره عيدا حذار الشرك بالرحمن

ودعا بأن لا يجعل القبر الذى قد ضمه وثنا من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه فى عــزة وحماية وصيان

قال شارح النونية الدكتور محمد خليل الهراس حفظه الله فى شرح هذه الأبيات. ونهـاهم كذلك أن يتخذوا من قبره عيدا يحجون اليه و يجتمعون عنده، فقال فيما رواه أبو هريرة (لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبرى عيدا، وصلوا على، فان صلاتكم تبلغنى حيث كنتم) رواه أبو داوود.

ودعا الله عز وجل أن لا يجعل قبره الذى ضم جسده الشريف وثنا يسجد له ويطاف به ويصلى عنده، فقال، اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، رواه مالك فى الموطأ.

فأجاب الله عز وجل دعاء نبيه ﷺ فأحاط قبره بثلاثة جدران حتى لا يكون بارزا. فأصبحت أنحاء القبر ببركة دعائه فى منعة وصيانة أن يرتكب عندها شىء من أعمال الوثنية. انتهى المراد منه. وقوله عليه الصلاة والسلام، اشتد غضب الله على قوم إتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، بيان للذريعة التى يتوصل بها ومنها الى اتخاذ القبور أوثانا تعبد، إذ معنى اتخاذ القبور مساجد تجرى العبادات عندها من صلاة ودعاء وقراءة قرآن وذكر وصدقة. وقد علم النبى ﷺ، وهو سيد العلماء والحكماء، أن تجرى العبادة عندها يؤدى إلى عبادتها. وكان مقتضى الحال أن يقول، اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم عبدوا قبور أنبيائهم، أو اتخذوا قبور أنبيـائهم أوثانا، لكنه عدل عن ذاك فقال (اتخذوا قبور أنبيـائهم مساجد. فما حكمة هذا العدول، والبليغ لا يعدل عن مقتضى الحال الا لنكتة؟ الجواب هو ما ذكرته آنفـــا، من ان العبادة عندها تؤدى إلى عبادتها. وقال البخارى عن

ابن عباس فى تفسير قوله تعالى من سورة نوح : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا (٢٣) هى اسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام. فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها باسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى اذا هلك اولئك ، ونسخ العلم ، عبدت. قال ابن كثير ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، كانت هذه أصنام تعبد فى زمان نوح. وقال ابن جرير بسنده الى محمد بن قيس ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ، قال : كانوا قوما صالحين ، وكان لهم اتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا ، قال أصحابهم الذين يقتدون بهم ، لو صورناهم كان اشوق لنا الى العبادة اذا ذكرناهم فصوروهم ، فلما ماتوا ، وجاء آخرون دب اليهم ابليس ، فقال : انما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم. وقال البخارى بسنده عن ابن عباس فى قوله تعالى فى سورة النجم : (أفرأيتم اللات والعزى (١٩) قال : كان اللات رجلا يلت السويق للحاج. وقرأ ابن عباس ، اللات بتشديد التاء ، وكذلك قرأ مجاهد والربيع ، وفسروه بأنه كان رجلا يلت للحجيج فى الجاهلية السويق ، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. وعن ابى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها اسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة ، فقلنا يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات انواط ، فقال رسول الله ﷺ الله أكبر ، انها السنن ، قلتم : والذى نفسى بيده ، كما قالت بنو اسرائيل لموسى (اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال ، انكم قوم تجهلون (٧ ، ١٣٨) لتركبن سنن من كان قبلكم. رواه الترمذى وصححه.

وروى ابن اسحاق عن أبى العالية قال : لما فتحنا تستر وجدنا فى بيت مال

الهرمزان سريرا عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف ، فاخذنا المصحف فحملناه الى عمر ، فدعا له كعبا فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل قرأه من العرب ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن فقلت لأبى العالية ، ما كان فيه ؟ قال : سيرتكم واموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت فما ذا صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ، فلما كان الليل دفناه ، وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه ، قلت وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء اذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . فقلت ، من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له ، دانيال ، فقلت : منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قال فى فتح المجيد بعد ذكر ما تقدم ، قال ابن القيم رحمه الله ، فى هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به ، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله .

وعن نافع قال بلغ عمر بن الخطاب ، أن ناسا يأتون الشجرة التى بويع تحتها النبى ، فأمر بها فقطعت . أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف . ولما كانت فتنة الناس بالقبور عظيمة وقع بسببها فساد كبير وشر مستطير فى عقائد الدهماء وأعمالهم ، رأيت أن أرخى العنان ، فى هذا الميدان ، لعل الله ينفع بما أكتسبه من شاء من عباده ويشفى به مرض القلوب ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما ، فانه الكريم الوهاب ، يرزق من يشاء بغير حساب . روى البخارى ومسلم من حديث عائشة ان أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال اولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، اولئك شرار الخلق عند الله . قال صاحب فتح المجيد بعد ايراد هذا الحديث ، فهؤلاء جمعوا بين فتنتين ، فتنة القبور ، وفتنة التماثيل . وروى البخارى

ومسلم عن عائشة قالت : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتم بها كشفها فقال - وهو كذلك - لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور انبيائهم مساجد . يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره ، غير أنه خشى أن يتخذ مسجدا . وروى مسلم فى صحيحه عن جندب بن عبد الله قال سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول ، انى أبرأ الى الله أن يكون لى منكم خليل ، فان الله قد اتخذنى خليلا ، كما اتخذ ابراهيم خليلا ، ولو كنت متخذا من أمتى خليلا ، لا تخذت أبا بكر خليلا ، الا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، الا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فانى أنهاكم عن ذلك . ..

قال صاحب الفتح عقب إيراد هذا الحديث . فقد نهى عنه فى آخر حياته . ثم أنه لعن - وهو فى السياق - من فعله ، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد ، وهو معنى قولها ، (خشى أن يتخذ مسجدا) فان الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدا . وكل موضع قصد الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا . كما قال ﷺ (جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا) . وروى أحمد بن حنبل من حديث ابن مسعود ، قال رسول الله ﷺ (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد) . وعن ابن عباس قال : لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج . رواه أهل السنن . وفى الباب عن أبى هريرة رواه احمد والترمذى وصححه . وعن حسان بن ثابت رواه ابن ماجه .

كلام نفيس فى فتنة القبور للامام محمد بن اسماعيل الصنعانى اليمنى

قال فى كتابه تطهير الاعتقاد من ادران الالحاد، ما نصه: فان هذه القباب والمشاهد التى صارت اعظم ذريعة إلى الشرك والالحاد، واكبر وسيلة إلى هدم الاسلام وخراب بنيانه: غالب - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، اما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه، من فاضل او عالم او صوفى أو فقير أو شيخ كبير، ويزوروه الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون، حتى ينقرض من يعرفه او اكثرهم، فيأتى من بعدهم فيجد قبرا قد شيد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد ان ذلك لنفع أو دفع ضر، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع، حتى يغرسوا فى جبلته كل باطل، والأمر ما ثبت فى الأحاديث النبوية من لعن من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها. وأحاديث ذلك واسعة معروفة. فان ذلك فى نفسه منهى عنه. ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة. انتهى.

قال جامع هذا الكتاب. ومن الأوثان ما يعلق لدفع الضر أو جلب النفع، من عوذ وخرز وعظام وودع وغيرها. عن عمران بن حصين أن النبى ﷺ، رأى رجلا فى يده حلقة من صفر، فقال، ما هذه؟ قال: من الواهنة. فقال: انزعها، فانها لا تزيدك إلا وهنا، فانك لو مت وهى عليك ما أفلحت ابداً. رواه أحمد. قال شارح كتاب التوحيد. قال أبو السعادات: الواهنة. عرق يأخذ فى المنكب وفى اليد كلها، فيرقى منها. وقيل هو مرض يأخذ فى العضد؛

وهى تأخذ الرجال دون النساء. نهى عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الالم، وفيه من الالم. انتهى. قال مؤلفه: معنى هذا الحديث أن النبى ﷺ رأى رجلا فى يده حلقة من نحاس أصفر جعلها فى ذراعه، فقال له، ما هذا؟ فقال الرجل لبست هذه الحلقة بسبب مرض الواهنة، يعنى لتدفع عنه الألم، فقال النبى ﷺ، انزعها ولا تلبسها فانها لا تزيدك إلا وهنا، أى ضعفا. وقوله عليه السلام، فانك لو مت وهى عليك ما أفلحت أبدا دليل واضح على أن من تعلق شيئا لدفع الضر أو جلب الخير لا يفلح أبدا أى لا ينجو من عذاب الله ولا يفوز برحمة الله، لأنه أشرك بالله. فهو كقوله تعالى: (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة). وليس كذلك ما يفعل من باب التداوى إذا جرى على طريق العلاج المعروف عند الأطباء. وتعليق الحلقة ليس من التداوى فى شىء. وروى أحمد والحاكم وصححه وأقره الذهبى عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ (من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا أودع الله له) وروى احمد ايضا بسنده إلى عقبة بن عامر قال، قال رسول الله ﷺ: (من تعلق تميمة فقد أشرك) وسبب هذا الحديث أن النبى ﷺ أقبل اليه رهط، فبايع تسعة وامسك عن واحد، فقالوا يا رسول الله، بايعت التسعة وامسكت عن هذا؟ فقال ان عليه تميمة، فادخل يده فقطعها فبايعه، وقال: من تعلق تميمة فقد أشرك). والتميمة خرزة، والودعة شىء يخرج من البحر كالصدف. والجهال يعلقون ذلك زعما منهم أنه يحفظ من العين وغيرها من الشرور. وقول النبى ﷺ فلا أتم الله له، دعاء عليه أن لا يبلغه الله مراده. وقوله، فلا ودع الله له، أى فلا جعله فى دعة وسكون أو فلا ترك له شيئا يحبه. وروى ابن أبى حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلا فى يده خيط من الحمى فقطعه وتلا قوله تعالى

في سورة يوسف: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (١٠٦). وفي رواية عن حذيفة، أنه دخل على مريض يعوده، فلمس عضده، فإذا فيه خيط، فقال ما هذا؟ قال شيء رقى لي فيه فقطعه! وقال: لو مت وهو عليك ما صليت عليك.

قال مؤلف هذا الكتاب: وفيه دليل على أن ذلك كفر. قال شارح الفتح: وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك، ما تعلقه الجهال، فهو شرك يجب انكاره وازالته بالقول والفعل، وإن لم يأذن فيه صاحبه. وروى البخاري ومسلم عن أبي بشير الأنصاري، انه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولا. أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت). والوتر، هو ما يربط بين طرفي القوس وكانت العرب إذا اخلولق الوتر، أي بلي، علقوه في أعناق الدواب اعتقادا منهم أنه يدفع عن الدابة العين. والقلادة ما يعلق في العنق. وإنما أمر النبي بقطعها، لأنها شرك، فهو من تغيير المنكر باليد. قال في فتح المجيد: قال البغوي في شرح السنة: تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين. وذلك انهم كانوا يشدون تلك الاوتار والتمائم والقلائد ويعلقون عليها العوذ، يظنون انها تعصمهم من الآفات. فنهاهم النبي ﷺ عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئا.

وروى أبو داود عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: ان عبد الله رأى في عنقي خيطا، فقال: ما هذا؟ قلت: خيط رقى لي فيه، قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك. سمعت النبي ﷺ يقول: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت اختلف الى فلان اليهودي، فاذا رقى سكنت. فقال عبد الله: إنما ذاك عمل الشيطان، كان

ينسخها بيده ، فاذا رقى كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقول كما كان رسول الله ﷺ يقول : أذهب الباس ، رب الناس ، واشف أنت الشافى لا شفاء إلا شفاؤك شفـــاء لا يغادر سقما) . ورواه ابن ماجه وابن حبان ، والحاكم وقال صحيح ، واقره الذهبى . انتهى من فتح المجيد . والرقى جمع رقيـــة بضم الراء فيهما ، وهى ما يقرأ على المريض فان لم يكن فيهـــا شرك ولا بدعة فهى جائزة . وقد ورد من ذلك فى السنة ما يشفى ويكفى . والتولة ، هو ما يفعله الساحر ليحبب المرأة إلى زوجها أو بالعكس . وقال الحافظ : التولة ـــ بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففا ـــ شىء كانت المرأة تجاب به محبة زوجها ، وهو ضرب من السحر . وكان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى . كذا فى فتح المجيد . انتهى .

وقوله تعالى : إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . حكاية عن ابراهيم ، انه اعلن أن اباه وقومه خارجون عن الحق بسبب شركهم . وتقدم تفصيل ذلك فى آيات سورة مريم وفى آية الممتحنة وآيتى الزخرف . وقد أمرنا الله أن نقتدى بابراهيم فنتبرأ من المشركين ولو كانوا أولى قربى ونكفر بهم . وقال تعالى فى سورة الممتحنة : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تومنوا بالله وحده ، إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء (٤) وقال تعالى فى سورة التوبة : (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه ، ان ابراهيم لأواه حليم (١١٤) فظهر إن ابراهيم كان يستغفر لأبيـه ما دام ابوه حيا ، فلما مات على الشرك تبرأ منه وترك الاستغفار له ، لأن الاستغفـــار

للمشركين والدعاء لهم بعد موتهم على الشرك لا يجوز. قال تعالى فى سورة التوبة (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم انهم أصحاب الجحيم (١١٣). وروى البخارى ومسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، وعنده عبد الله بن أمية وأبو جهل فقال له، يا عم، قل، لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله، فقالا له أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبى ﷺ، فأعادا. فكان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول. لا إله إلا الله. فقال النبى ﷺ، لأستغفرن لك ما لم أنه عنك. فأنزل الله عز وجل، ما كان للنبى والذين آمنوا، الآية.

ثم قال تعالى: وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض. أى كما أرينا ابراهيم دلائل التوحيد ووجوب البراءة من أهل الشرك، وإن كانوا أولى قربى، نريه ملكوت السموات والأرض، أى اسرار ملك الله وحججه على خلقه ليزداد علما وليكون من الموقنين العالمين علم اليقين بأن الله هو الحق وأن ما يدعى من دونه هو الباطل. وإن كان عالما بذلك فقد قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ فى سورة طه: (وقل رب زدنى علما (١١٥). وقال تعالى فى سورة البقرة: (مخاطبا لنبيه ابراهيم حين سأله أن يريه كيف يحيى الموتى! (قال: أولم تؤمن قال بلى، ولكن ليطمئن قلبى (٢٦١). فلما جن عليه الليل الخ. أى لما جاء الليل وستر بظلامه الأشياء، ولم يبق إلا ضوء الكواكب والقمر، رأى ابراهيم كوكبا منها، فقال على سبيل المناظرة لقومه، أو على سبيل الاستدلال، وكان صغيرا فى سن المراهقة، هذا ربى أى الهى الذى اعبده وأتشفع به إلى خالق السموات والأرض، فلما غاب قال لا أحب الآفلين، أى المنتقلين المتغيرين. فلما رأى القمر بازغا قال

هذا ربي أى الهى الذى اتخـذه واسطة فى قضاء حاجاتى عند رب العـالمين . فلما غاب ، قال لا أحب الهـا يتغير ويزول . فلما رأى الشمس طـالعة ، قال هذا الطـالع الهى ، هذا أكبر ممـاتقدمه وأكثر ضوءا ، وهو يعطى حرارة ودفئا إذا لم ينتقل . فلما غربت الشمس ولم تستطع البقـاء عن موعد غروبها المحدد لها تبين ان الاجرام السماوية التى كان يعبـدها قوم ابراهيم ويبنون لهـا الهيـاكل ، هى مخلوقات مسخرة لا نية لها ولا قصد فلا معنى لعبـادتها . فقـال حينئذ : يا قوم انى برىء مما تشركون من الآلهة المخلوقة المسخـرة العـاجزة ، انى وجهت وجهى ونفسى وأسلمت قلبى لله الذى خلق السماوات والارض حنيفا مبـاينا لجميع الاديان والملل ، ماعدا الاسلام . روى مسلم فى صحيحه عن على بن أبى طالب عن النبى ﷺ : أنه كان إذا قام إلى الصلاة يقول : وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العـالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا من المسلمين . اللهم أنت الملك لا إلـه إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفرلى ذنوبى جميعـا ، انه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها الا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله فى يديك ، والشر ليس اليك ، أنا بك واليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب اليك . وفى رواية لمسلم : أن ذلك فى صلاة الليل .

ثم قال تعالى : وحاجه قومه قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون . (٨١) وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم

سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون (٨٢) الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون (٨٣) وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم (٨٤) .

المفردات

المحاجة ، أن يطلب كل من المتحاجين حجة على دعواه . والهداية من الله ، خلق الهدى فى القلب ، ومن غيره ، الارشاد والدلالة ، فلا تنافى بين قوله تعالى فى سورة الشورى : وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم (٥٣) وقوله تعالى فى سورة القصص : إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين (٥٧) .

المعنى العام

قوله سبحانه : وحاجه قومه ، يعنى لما استدل ابراهيم على بطلان عبادة الكواكب والقمر والشمس وغيرها مما يعبد من دون الله وتبرأ من عبادتها ووجه وجهه للذى فطر السماوات والأرض وحده لا شريك له ، أخذ قومه يجادلونه ، فقال لهم ، أتجادلوننى فى توحيد الله ، والحال انه سبحانه هدانى إليه ، فخوفوه بآلهتهم وحذروه من نقمتها ، فقال : لا أخاف ماتشركون به ، لكن ان شاء ربى شيئا يصيبنى ، فانه سيصيبنى بمشيئته وتقديره . وأما آلهتكم فانها لاتضر ولاتنفع ولاتشفع ولاتدفع . وكيف أخاف ماأشركتم بالله من آلهتكم المخلوقين العاجزين ، ولاتخافون أنتم مع أنكم أشركتم بالله القوى العزيز الذى بيده ملكوت كل شىء ، وهو المتصرف فى كل شىء ، لا يكون فى خلقه إلا ما أراد ، أشركتم به مالا حجة لكم فى عبادته من الآلهة التى تخيلتموها وتعلقتم بها سفاهة وجهلا وافتراء ، فأى

الفريقين أجدر بالأمن من عـذاب الله إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا وأخلصوا العبـادة لله أم الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى . قال الله تعـالى : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمـانهم بظلم ، أى لم يخلطوا إيمـانهم بشرك ، أولئك لهم الأمن فى الدنيـا والآخرة من عذاب الله هم مهتدون ، والمشركون فى ضلال مبـين . ومثل هذا ما حكى الله سبحـانه عن هود وقومـه فى سورة هود : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مـدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين (٥٣) . قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين (٥٤) إن نقول الا اعتراك بعض آلهتنـا بسوء قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون (٥٥) من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون (٥٦) انى توكلت على الله ربى وربكم مـا من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم (٥٧) فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً ، ان ربى على كل شىء حفيظ (٥٨) ومن عادة المشركين فى كل زمان اذا عجزوا عن الحجة والبرهـان أن يخوفوا الموحدين من نقمة آلهتهم ، والموحد لا يخـاف الا الله ، لأن تلك الآلهة ، إن كانت راضية بعبادة المشركين لها فهى شياطين ، وقد قال الله تعالى فى سورة النساء : (ان كيد الشيطـان كان ضعيفاً (٧٧) وقال تعـالى : فى سورة النحل : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٩٩) انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (١٠٠) انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (١٠١) وان كانت أرواح الصالحين أو الملائكة أو أرواح الأنبيـاء فانها لا ترضى بعبادتهم ، بل تعـاديهم وتكون عليهم ضداً كما قال تعـالى فى سورة مريم : (واتخـذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا .

كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً (٨٢ ، ٨٣) . وقال تعالى في سورة ياسين : (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون (٧٥ ، ٧٦) وقال تعالى في سورة الأحقاف : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم من دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٦ ، ٧) وقال تعالى في سورة فاطر : (ذالكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير (١٤، ١٥) فالمشركون إذا حققت تجدهم لا يعبدون إلا أوثانا ، كالقباب المشيدة والأشجار الباسقة والمياه والأحجار الموضوع بعضها على بعض ، لكنهم يتخيلون أن لهذه الأوثان أرواحا تتصل بها ، وهي أرواح قوم صالحين يقضون حاجات من يشد الرحال إلى تلك الأوثان المسماة بأسمائهم ويذبح لها الذبائح ويقرب لها القرابين . فقد كشف الله حالهم بقوله في سورة النجم . (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان، ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى (٢٤) وقوله تعالى : أفلا تتذكرون ، تنبيه على أن من استعمل عقله وتدبر هذه المحاجة أدنى تدبر وترك هواه واستعان بالله انكشف له الحق وزال عنه الباطل . قال تعالى مشيراً إلى احتجاج ابراهيم على المشركين : وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء من الأنبياء وأتباعهم السائرين على منهاجهم بالتوحيد والتقوى ، إن ربك حكيم في شرعه وفعله ، عليم بجميع أحوال خلقه .

ثم قال تعالى : ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من

قبل، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين (٨٥) وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، كل من الصالحين (٨٦) واسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين (٨٧) ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم (٨٨) ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (٨٩) اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين (٩٠) اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجراً ، إن هو إلا ذكرى للعالمين (٩١) .

المعنى العام

قوله تعالى : ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، إلخ . ذكر هبة الله له اسحاق ، وهو ابنه على كبر سنه كما قال تعالى فى سورة هود : (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما ، قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (٧٠) فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط (٧١) وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب (٧٢) قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا، ان هذا لشىء عجيب (٧٣) قالوا أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد (٧٤) وهذه الهبة مكافأة من الله تعالى لابراهيم ، لتحقيقه توحيد الله ومحاجته للشركين وبراءته منهم وكفره بهم واعلان عداوتهم واعتزالهم كما قال تعالى فى سورة مريم: (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا (٥٠،٥١) ومن المعلوم أن الولد على كبر السن قرة عين للوالدين، لاسيما وقد بشرهما الله

بأنه سيكون نبيا وسيلد نبيا وهو يعقوب والظاهر أن يعقوب ولد فى حياة ابراهيم وسارة ، لأن مقتضى وهبناله يدل على أنه رآه وانه ولد فى حياته . فبشارة الشيخ وزوجه بعد اليأس والكبر بولد يكون نبيا وبحفيد يكون نبيا كذلك ، نعمة عظيمة يسر بها سروراً بالغ الغاية كما قال تعالى فى سورة الفرقان فى الثناء على عباد الرحمن : (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما (٧٥) وعطف يعقوب على اسحاق ، وان كان اسحاق ابنا ويعقوب حفيداً له ، لأن ابن الابن ابن لغة وشرعا . وقوله تعالى كلا هدينا ، أى هدينا كل واحد منهما وهدينا نوحا قبلهما وقبل والدهما ابراهيم . ومن ذريته ، أى نوح ، هدينا داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك الجزاء الذى جزينا ابراهيم نجزى المحسنين من الأنبياء والصالحين فى كل زمان ومكان . وإنما عاد الضمير فى ذريته على نوح لما سيأتى من ذكر لوط ، لأنه ليس من ذرية ابراهيم ، وإنما هو ابن أخيه . ثم قال تعالى عاطفا على من تقدم ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس ، كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين بالنبوة . وهدينا من نشاء من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم السالكين على منهاجهم ، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ، وهو طريق هدى توحيد الله وطاعته ، ذلك الهدى الذى هديناهم هدى الله يهدى به من يشاء من عباده . ولو أشركو بالله شيئا مع علو منزلتهم لحبط عنهم ما كانوا يعملون من الأعمال الصالحة ، لكنهم معصومون من الكفر والمعاصى . وفى هذا وعيد شديد لمن أشرك بالله . ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة الزمر : (ولقد أوحى اليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦ ، ٦٧) وتعليق الشرط على المحال واقع فى القرآن وفى

سائر الكلام . قال تعالى فى سورة الزمر : (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار (٥) . ثم قال تعالى مشيرا الى من ذكر من الأنبياء : اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم ، وهو الفهم عن الله ، والنبوة ، فان يكفر بها هؤلاء ، يعنى أهل مكة ، فقد وكلنا بها فى سابق العلم الالهى قوما ليسوا بها بكافرين ، وهم المهاجرون والأنصار ومن جاء بعدهم من المؤمنين الصادقين ومن يجىء الى يوم القيامة ، ثم قال تعالى : أمرا نبيه محمدا ﷺ وأمته تبع له ، اولئك المذكورون الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، أى لا تتبع إلا هداهم ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . ثم قال تعالى : قل يامحمد ! لا أسألكم عليه أى القرآن أجرا كيفما كان ، ان هو أى التذكير بالقرآن إلا ذكرى أى موعظة وتذكرة للعالمين كلهم ، بخلا فما تؤخذ عليه أجرة فانما يكون لمن أعطى الأجرة .

ثم قال تعالى : وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، وعلمتم ما لم يعلموا أنتم ولا آباءكم ، قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون (٩٢) .

المعنى العام

ونزل فيمن جحد الوحى والنبوة من الكفار ، وما قدروا الله حق قدره ، أى ما عظموه حق تعظيمه حين قالوا ما أنزل الله على بشر شيئاً من الوحى . ويقال : ان بعض كفار اليهود قال ذلك ، ويدل عليه قوله تعالى : قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ، وهو التوراة نورا ينور ظلمات الجهل ، وهدى للناس من الضلال تجعلونه أيها اليهود قراطيس أى صحفاً تنقلونها من الكتاب

الأصلى تبدونها تظهرونها وتخفون كثيرا ، وهو ما لا يناسب أهواءكم وأغراضكم الخسيسة ، وهذا شأن علماء السوء . وعلمتم على لسان محمد ما لم تعلموا أنتم ولا آباءكم الذين كانوا أعلم منكم . ولما كان جواب الاستفهام متعينا لا مندوحة لهم عنه قال تعالى : قل الله أنزله ، ونحن مؤمنون به وبسائر كتب الله ، سواء أقررتم أم جحدتم . ثم اتركهم فى أباطيلهم يلعبون ويتخبطون ، فقد أبلغتهم وبرئت ذمتك .

ثم قال تعالى : وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون (٩٣) .

المعنى العام

وهذا القرآن كتاب مبارك لكل من تلقاه بالايمان والعمل به واتخاذه إماما وحكما ، مصدق الذى بين يديه ، أى تقدمه من الكتب السماوية ، وهو آخر الكتب وأكملها لتبلغه وتنذر به أم القرى مكة ومن حولها الى نهاية المعمور من الأرض . والذين يؤمنون بالآخرة من أهل الكتاب وغيرهم ويخافون الله يؤمنون به . وهم على صلاتهم يحافظون ، فان المحافظة على الصلاة متلازمة مع الايمان بكتب الله ورسله .

ثم قال تعالى : ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون (٩٤)

ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون (٩٥) .

المفردات

غمرات الموت ، شدائده . خولناكم ، أعطيناكم .

المعنى العام

قوله تعالى : ومن أظلم الخ . أى لا أحد أكثر ظلما وأعظم جرما ممن رد آيات الله وكذب بها مع وضوحها ، أو ادعى انه أنزل عليه الوحى كذبا وزورا، أو زعم أنه يستطيع أن يؤلف كتاباً مثل كتاب الله كما قال الكافرون الأولون والآخرون ، قال تعالى فى سورة الأنفال حكاية عنهم : (واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا إلا أساطير الأولين (٣٢) . وقد افترى على الله الكذب خلق من المتنبئين والدجاجلة والزنادقة من زمان مسيلمة الكذاب الى زماننا هذا ففضحهم الله وظهر كذبهم . ولم يتوصلوا الى أغراضهم الخسيسة التى لأجلها كذبوا على الله ، فبعضهم قتل وبعضهم تاب وبعضهم جلله الخزى والاحتقار . ثم قال تعالى : ولو ترى اذ الظالمون ، أى الكافرون فى غمرات الموت ، شدائده وسكراته ، وقد ظهرت لهم الملائكة لقبض أرواحهم مهانة معذبة كما قال تعالى فى سورة الأنفال : (ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (٥١ ، ٥٢) وتقول لهم الملائكة تعنيفا وتوبيخا أخرجوا أنفسكم من اجسادكم ، فقد آن لها أن تخرج الى لعنة الله وعذابه . اليوم تجزون

عذاب الهون، أى عذابا فيه اهانة لكم، لأنكم كنتم تستكبرون عن قبول آيات الله وتكذبون على الله وتنسبون له من الأقوال والشرائع مالم يأذن به. ويقول الله لهم لقد جئتمونا منفردين عن أهلكم وأنصاركم وأموالكم فقراء حقراء كما خلقناكم أول مرة عند ما خرجتم من بطون أمهاتكم تركتم وراءكم جميع ما رزقكم الله من أهل وأموال، فأين شركاؤكم الذين زعم أنهم ينصرونكم وينجوكم من عذاب الله، وأين اخوانكم الذين كنتم تتعاونون معهم على الكفر والمنكرات لقد تشتت شملكم وتقطع ما بينكم من الأسباب. كما قال تعالى فى سورة المؤمنين (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (١٠٢) وقال تعالى فى سورة العنكبوت: (وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين (٢٦) وقوله تعالى، وضل عنكم ما كنتم تزعمون، أى بطل وتلاشى ما كنتم تعتقدون فى الدنيا من شفاعة شركاءكم ونصرة اخوانكم.

ثم قال تعالى: إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى، ذلكم الله فأنى تؤفكون (٩٦) فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم (٩٧).

المفردات

الفلق شق الشيء وابانة بعضه عن بعض. والحب معروف، كحب الحنطة والشعير والذرة وما أشبه ذلك. النوى، جمع نواة، وهو الجسم الصلب الذى يوجد فى داخل التمر وغيرها من الثمرات ذوات النوى.

المعنى العام

لما قرر سبحانه وتعالى توحيده فى أول السورة وما بعده أحسن تقريره، وبين رسالة الرسل أحسن بيـــان، ذكر هنا بعض الأدلة على توحيده وإفراده بجميع أنواع العبادة، فقال: إن الله هو الذى شق الحبة وأخرج منها السنبلة، وشق النواة وأخرج منها الشجرة، يخرج الحى، وهو النبات والشجر، من الميت، وهو الحب والنوى. ومخرج الميت، وهو الحب والنوى من الحى، وهو الزرع والشجر، فان الزرع والشجر ينمو ويتحرك فهوحى، والحب والنوى لا ينمو ولا يتحرك، فهما ميتان. وكذلك ما سواهما ما يتصف بالحياة والموت، كاخراج المؤمن من الأب الكافر وإخراج الولد الكافر من الأب المؤمن، وإخراج الولد العالم من الأب الجاهل والولد الجاهل من الأب العالم، والفرخ من البيضة، والبيضة من الدجاجة. ذلكم الله ربكم ومعبودكم الحق لا اله إلا هو، ولا معبود سواه، فكيف تصرفون وتضلون بعبادة غيره من المخلوقين العاجزين، الذين لا يملكون لكم دفعا ولا نفعـا، ذلكم هو الضلال البعيد. ثم قال تعالى فالق الاصباح، أى هو الذى يشق ظلام الليل من الصبح فيأتى النهار بضيائه بشمسه، صالحا لحركات الناس فى طاب أرزاقهم وقضاء مأربهم. قال تعالى: وجعل الليل سكنا، أى صالحا للسكون والراحة. والانسان وغيره من الحيوان محتاج الى الحركات والسكون. وهو الذى جعل الشمس والقمر يجريان بحساب دقيق ونظام جميل لا يختل أبدا، وقدر كل ذلك بعلمه، فجاء وجوده حسب تقدير، بلا زيد ولا نقص، ذلك تقدير العزيز الغالب القوى، العليم بكل شىء علما لا يشاركه فيه أحد، فمن أطاعه ووحده واتبع هداه عز وسعد، ومن نازعه فى عزته وعلمه ذل وضل وخسر وخاب.

ثم قال تعالى: وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنـــا الآيات لقوم يعلمون (٩٨) وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة، فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (٩٩)

المعنى العام

ثم قال تعالى، وهوالذى جعل، أى خلق لكم النجوم لتهتدوا بها فى طريقكم برا أو بحرا على الوجهـــة الصحيحة للبلد الذى تقصدونه، فان المسافر يستدل بحركات الشمس فى النهار وحركة القمر والنجوم فى الليل، فيعرف بذلك طريقه ويستضىء بضوئها، ثم إن النجوم زينة للسماء كما قال تعـــالى: فى سورة فصلت وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم (١٢) قال ابن كثير قال بعض السلف من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث، فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه، أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، ويهتدى بهـــا فى ظلمات البر والبحر. وفى فتح المجيد، قال البخارى: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه. وتكلف ما لا علم له به. وفيه أيضا قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى: التنجيم، هو الاستدلال بالأحوال الفلكية، على الحوادث الأرضية.

وقال الخطـــابى: علم النجوم المنهى عنه، هو ما يدعيه أهل التنجم من علم الكوائن والحوادث التى ستقع فى مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح ومجىء المطر، وتغير الاسعار، وما فى معناها من الأمور التى يزعمون انها تدرك معرفتها بسير الكواكب فى مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيرا

فى السفليـــات . وهذا منهم حكم على الغيب ، وتعاطٍ لعلم قد استأثر الله به ، ولا يعلم الغيب سواه . وفى رواية للخطيب من قتادة . وإن ناسا جهلة بأمر الله قد أحدثوا فى هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا .

ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمـــر والأسود ، والطويل والقصير ، والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشىء من هذا الغيب . انتهى .

قال تقى الدين : قوله : وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر الخ اشارة إلى أن العرب لم تكن تقتصر على سؤال الكهنة والمنجمين و العرافين عن الأمور المغيبة ، بل كانت تطلب علم المغيبات بأمور أخرى ، منها : التيمن بالدواب والطير تزجرهـا ، أى تطردها ، فان سارت الدابة أو طار الطـــائر إلى جهـــة اليمين تيمنت واستبشرت وظنت خيرا ، وإن كان ذلك الى جهـة الشمال تطيرت وتشاءمت وتوقعت شرا . وكانت تطلب علم الغيب أيضـا بطرق الحصـا . قال فى مجمع البحـــار : فى شرح حديث ، الطرق من الجبت ، هو الضرب بالحصـــا التى تفعله النساء ، وقيل هو الخط فى الرمل . أقول وقد تعلمت شيئا من خط الرمل بقصد الاطلاع فوجدته لا يمت بأى صلـــة إلى علم المغيبات ، وإنمـــا هو حيلة يحتال بها البطالون على أكل أموال الناس بالباطل . وأكثر من ينخـــدع لهم النساء والجهال ، ولهم فى ذلك مهارة عجيبة ، فان إشكال الرمل ، منهـــا ما سمى باسم يدل على المرغوب ، كالطريق والاحيان الفارح والنصرة والجماعة ، ومنهـــا ما سمى باسم يدل على المخوف ، كالاحيان الانكيس والحمرة وهى ستة عشر شكلا أصلها أربعة . فاذا ظهر شكل يدل على الخير كالجماعة مثلا ، يقول العراف للسائل

لعلك تسأل عن شخص غائب عنك . أهو كذلك ، فيقول هذا السائل المغفل أو السائلة المغفلة نعم يا سيدى ! رحم الله من علمك . ابنى غاب عنى منذ ثلاث سنين وتبكى السائلة . فيقول العراف أبشرى فقــد خرج لك شكل الجماعة ، فستجتمعين به عن قريب . وإذا خرج شكل يدل على الشر ، يقول أن المسئول عنه فى شدة إما فى مرض أو سجن ، أو حزن ، ويعطى ذلك إجمالا ، فيعطيه السائل أو السائلة التفاصيل ، وهو لايشعر ، فيعود العراف فيرد عليه تلك التفاصيل ويزخرفها بأكاذيب يزيدها من عنـــده ، فلا يشك هذا المغفل أو هذه المغفلة ان ذلك العراف أو تلك العرافة قد اطلعا على أحواله وتوصلا إلى علم الغيب بتلك النقط أو الخطوط . وهذا من فشو الجهل والغباوة ، وما أحسن ما قال الشاعر :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقوله تعالى : قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، أى بينا العلامات والدلائل على كمال قدرتنا واتقان تدبيرنا ، ولاينتفع بذلك إلا الذين أوتوا العلم ولم تعمهم أهواؤهم عن رؤية الحق . قوله تعــالى : وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، الآية ، أى خلقكم من نسل آدم كما قال تعالى فى أول سورة النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) قال أكثر المفسرين من السلف ، فمستقر ، استقرار النطفة فى أصلاب الرجال ومستودع ، ايداعهـــا فى أرحام النساء حتى وقت الولادة ، قد فصلنا الآيات ، أى بيناها لكل من يفهم ويعى .

ثم قال تعالى : وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا

أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون (٩٩) .

المفردات

الخضر ، صفة مشبهة من خضر كفرح ، فهو أخضر وخضر . والمراد به كل نبات أخضر كالزروع والقول والبقول ، قنوان جمع قنو ، وهو العذق ، ويسمى باللغة المغربية عرجونا . ينعه ، نضجه ، ينعت التمرة واينعت نضجت .

المعنى العام

سأنقل تفسير هذه الآية من تفسير الخازن ، لأنه أجاد فى تفسيرها ، وليس عندى ما أزيد عليه . قال خازن : (وهو الذى أنزل من السماء ماء) يعنى المطر (فأخرجنا به) يعنى بالماء الذى أنزلناه من السماء (نبات كل شىء) يعنى كل شىء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات (فأخرجنا منه حضرا) يريد أخضر ، والأخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة (نخرج منه حبا متراكبا) يعنى نخرج من ذلك الأخضر سنابل فيها الحب يركب بعضه فوق بعض ، مثل سنبل القمح والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب . وفى تقديم الزرع على النخل دليل على الأفضلية ، ولأن حاجة الناس اليه أكثر ، لأنه القوت المألوف . (ومن النخل من طلعها قنوان دانية) يعنى من ثمرها ، يقال أطعت النخلة ، إذا أخرجت طلعها ، وطلعها كفراها قبل أن ينشق عن الاغريض ، والاغريض يسمى طلعا أيضاً ، وهو ما يكون فى قلب الطلع ، والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان ، يكون فيه العذق ، فاذا شق عنه كيزانه سمى عذقا وهو القنو ، وجمعه قنوان ، مثل صنو وصنوان دانية ، أى قريبة التناول ، يناالها القائم والقاعد . وقال الضحاك قصار ملتصقة بالأرض . وفيه اختصار وحذف

تقديره ، ومن النخل ما قنوانها دانيه قريبة ، ومنها ما هى بعيدة عالية . فاكتفى يذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولأنها أسهل تناولا من البعيدة ، لأن البعيدة تحتاج الى كلفة . (وجنات من أعناب) يعنى وأخرجنا من ذلك بساتين من أعناب . (والزيتون والرمان) يعنى وأخرجنا شجر الزيتون وشجر الرمان . (مشتبها) قال قتادة ، مشتبهاً ورقها ، مختلفا ثمرها ، لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان (وغير متشابه) يعنى ومنها غير متشابه فى الورق والطعم . واعلم أن الله تعالى ذكر فى هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع . وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار ، لأن الزرع غذاء ، والثمار فواكه ، والغذاء مقدم على الفواكه وإنما قدم النخل على غيرها ، لأن ثمرتها تجرى مجرى الغذاء ، وفيها من المنافع والخواص ما ليس فى غيرها من الأشجار ، وإنما ذكر العنب عقب النخلة لأنه من أشرف أنواع الفواكه . ثم ذكر عقبه الزيتون ، لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة فى الأكل وسائر وجوه الاستعمال . ثم ذكر عقيبة الرمان لما فيه من المنافع أيضا لأنه فاكهة ودواء (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) يعنى ونضجه وإدراكه ، والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله هذه الثمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة ، وهو قوله تعالى : (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) يعنى أن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيى الموتى ويبعثهم . وإنما احتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال الى حال ، وهو ما يعلمونه قطعا ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها وإخراج سائر أنواع النبات والثمار منها وإنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى ليبين أنه تعالى كذلك قادر على أن يحييهم بعد موتهم ويبعثهم يوم القيامة . فاحتج عليهم بهذه الأشياء ، لأنهم كانوا ينكرون البعث .

ثم قال تعالى : وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون (١٠٠) بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم (١٠١) ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل (١٠٢) لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (١٠٣) .

المفردات

خرقوا ، اختلقوا وكذبوا . بديع السماوات والأرض ، منشئهما على غير مثال سابق ، اللطيف ، العالم بدقائق الأمور المحسن بما لا تدركه الحواس من البر والخير ، فعلمه وبره بلغا فى الدقة الى حد يخفى على المخلوقين . الخبير ، العالم ببواطن الأمور .

المعنى العام

وجعلوا ، أى المشركون لله شركاء عبدوهم معه الجن ، وقد أخبر الله فى مواضع متعددة من كتابه العزيز أن البشر يعبدون الجن ، وأنكر ذلك عليهم أشد الانكار ومن ذلك قوله تعالى فى سورة النساء (إن يدعون من دونه الا اناثا وان يدعون الا شيطانا مريدا . لعنه الله ، ١١٧ ، ١١٨) وقال تعالى فى سورة الاعراف (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ، ٣٠) وقال تعالى فى سورة الفرقان (ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أ أنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا .

فقد كذبوكم بما تقولون ، فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩)
وقال تعالى فى سورة يس (ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا
الشيطان ، انه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ٦٠ ، ٦١)
وقال تعالى فى سورة الجن (وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن
فزادوهم رهقا ، ٦) . وعبادة الإنس للجن شائعة فى كل زمان . وكثير من
الدجاجلة رجالا ونساء يشتغلون خوف الإنس من الجن فينصبون لهم الحبائل
ويبتزون أموالهم ويفسدون عقولهم ودينهم ، فكلما وجد الدجال مريضا أو مريضة
أو امرأة عاقرا أو لا تلد إلا الإناث ، أو يموت أولادها يفتح الكتاب فيجد فيه
بزعمه أن لذلك الشخص تابعاً من الجن ، وهو السبب فى كل ما يصيبه ، ويقول
له ، سأعمل لك نشوة وأخلصك من هذا العفريت فهلم ذبيحة ، ان رأى أنه غنى
يفرض عليه كبشا سمينا ، وان رأى انه فقير يأمره باحضار ديك سمين أحمر أو
أسود أو غير ذلك من الألوان ، فيذبحه لغير الله شركا و يأمره أن يطبخ جزءا
حقيرا منه كرأسه بدون ملح ويرش ماء ، فى أركان البيت للجن الساكنين به ، واذا
بنى أحد بيتا جديدا لا يستطيع أن يسكنه إلا إذا ذبح شاة لسكان المكان ، يعنى
الجن . وترى النساء يخفن من المرور على الرماد وصب الماء فى الليل ، وهذا
كله من الشرك وعبادة غير الله ، قال الله تعالى فى سورة آل عمران (انما ذلكم
الشيطان يخوف أولياءه . فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين ، ١٧٥) . وقال
تعالى فى سورة النحل (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .
إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين
يتولونه والذين هم به مشركون ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠) وقد تحقق بالمشاهدة أن
الصرع مرض من أمراض الاعصاب ، لا علاقة له بالجن ، عن عطاء بن أبى رباح

قال : قال لى ابن عباس ألا أريك امرءة من أهل الجنة ؟ فقلت بلى ! قال هذه المرءة السوداء أتت النبي ﷺ « فقالت انى أصرع وإنى اتكشف فادع الله تعالى لى قال ان شئت صبرت ولك الجنة وان شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك فقالت أصبر فقالت إنى اتكشف فادع الله ان لا اتكشف فدعا لها » متفق عليه.
بل يعالج بالأدوية فتتوقف نوباته ، وان كان المريض صغير السن يشفى شفاء تاماً باذن الله . وهذا مقتضى قول النبي ﷺ « تداووا يا عباد الله ، فان الله ما أنزل داء الا أنزل له دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » رواه أبوداود وغيره.
هكذا يقول الاطباء المعاصرون وقال ابن القيم رحمه الله هو نوعان نوع من مرض الأعصاب ونوع من الجن والله أعلم . والخوف من الجن سبب لأمراض كثيرة ، فكل صبي ينشأ على ذلك ويسمع العجائز تحكى حكايات الجن وتعرضهم لبنى آدم ، يكون مريض الدماغ عرضة للجنون ، ويبقى معه ذلك الخوف الى أن يصير رجلا فلا يستطيع أن يدخل بيتا مظلما ، فضلا عن أن ينام فيه وحده ، وذلك ينافى الشجاعة والتوكل على الله والثقة به ، وهذه صفات المسلم الذى حسن اسلامه وصح ايمانه . وأى رجل يخاف من الجن ولا يستطيع أن يغشى الأماكن المظلمة أو يبيت فيها وحده لا يستطيع أن يجاهد فى سبيل الله ، لأنه ليس له رجولة . وقد قال النبي ﷺ « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » وفى صحيح البخارى أن النبي ﷺ « أمر أبا هريرة أن يحرس تمر الصدقة ، فجاء فى الليل شخص وجعل يأخذ من التمر ويضع فى ثوبه ، فقبض عليه أبوهريرة ، فاذا يده فيها شعر ، كأنها يد كلب ، فسأله أبو هريرة فأخبره أنه من الجن ، فقال له أ هكذا أنتم معشر الجن ، فقال لقد علمت الجن ما فيهم أقوى منى » الى آخر القصة . فلو كان أبوهريرة من شبان هذا الزمان الذين وضعوا

الخوف و تعلوه من أمهاتهم الجاهلات لأغمى عليه بمجرد رؤية ذلك الجنس.
وقوله تعالى وخلقهم أى وهو الذى خلق الجن ، فكيف يشركون به بعض مخلوقاته
فالدين والعقل يوجبان على كل مخلوق أن لا يتعلق إلا بخالقه ولا يدعو غيره
ولا يلتجىء الى سواه ، لأن العاجز لا ينقذ العاجز والفقير لا يغنى الفقير ، ومن
كانت به علة فعجز عن دوائها لا يمكن أن يداوى غيره اذا كان مصابا بها ،
وإلا كان كما قال أبو الأسود الدؤلى فيمن يعظ غيره وهو لا يتعظ :

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيما يصح به وأنت سقيم

وقوله تعالى (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) أى اختلقوا وكذبوا ، فزعموا
أن لله ابناء كالمسيح وعزير وغيرهما ممن يزعم النصارى أنهم ابناء الله . وتأولهم
البنوة فى غير عيسى بالمحبة وعلو المكانة لا ينفعهم شيئا ، لانعدام المناسبة بين الخالق
والمخلوق والصانع والمصنوع ، فلوقلت لرجل صنع دمية جميلة هذه ابنتك لكان
ذلك شبه عليه ، مع أن الصانع والمصنوع كلاهما مخلوق مسبوق بالعدام صائر الى
الفنا ، فكيف بالأول الذى لابداية له الآخر بلا نهاية الحى القيوم ؟ وما قدروا الله
حق قدره ، من جعل له ابناء من البشر . وزعمت العرب من أهل الجاهلية أن
الملائكة بنات الله ، مع أنهم يكرهون البنات لأنفسهم ، قال تعالى فى سورة
النحل (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، ٥٧) . سبحانه وتعالى
عما يصفون ، نزه نفسه عما نسبه اليه الجاهلون . بديع السماوات والأرض خلقهما
وأحسن خلقهما على غير مثال سابق ، ومن ثم قيل لكل أمر محدث فى
الدين بدعة . كيف يكون له ولد ، ولم تكن له زوجة ، لأن التزاوج يقتضى
التناسب والتماثل والتكافؤ ، والله ليس له شبيه ولا مثيل ولا كفؤ . ولا نظير .

وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الموصوف بما تقدم ، هو الله ربكم الذى يربيكم بنعمه ، لا معبود لكم بالحق غيره فاعبدوه وحده لا شريك له ، وهو ولى أموركم الرقيب عليكم المتصرف فيكم فاقصدوه بجميع حاجاتكم ، فما لكم من دونه من ولى ولا نصير . لا تدركه الأبصار ، أى لا تحيط به ولا تراه فى الدنيا ، لأن حكمته اقتضت أن لا يراه المؤمنون إلا فى الدار الآخرة كما قال تعالى فى سورة القيامة (وجوه يومئذ ناضرة . الى ربها ناظرة ، ٢٢ ، ٢٣) أخرج البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله البجلى قال : كنا عند رسول الله ﷺ فنظر الى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر ، لاتضاءون فى رؤيته ، فان استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . وهو اللطيف الخبير . تقدم معناهما فى المفردات .

ثم قال تعالى : قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ (١٠٤) .

المعنى العام

البصائر جمع بصيرة ، وهى للذهن كالبصر للبدن ، والمراد بها هنا أسباب العلم بالحق والهدى ، وهى آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبى (ﷺ) كما قال تعالى فى أول سورة الجمعة (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقال تعالى فى سورة النحل (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، ٨٩) . والحفيظ ، هو الرقيب الذى يحاسب الناس على أعمالهم

ويجزيهم عليها . ومعنى الآية . قد جاءتكم البينات والدلائل الواضحات وعرفتم سبيل الرشد وسبيل الغى ، فمن أبصر الحق واتبعه فلنفسه عمل خيرا والله غنى عن العالمين . ومن عمى عن الحق باتباع هواه فعليها يعود وباله . وما أنا بمراقب ولا مجاز لكم ، وإنما على البلاغ المبين وحسابكم على الله .

ثم قال تعالى : وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون (١٠٥) إتبع ما أوحى إليك من ربك ، لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين (١٠٦) ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل (١٠٧) .

المعنى العام

قوله تعالى ، وكذلك نصرف الآيات ، أى مثل ذلك التصريف والتوضيح نبين الآيات الدالة على الحق عالمين ، أن أعداء الحق المشركين سيقولون درست يا محمد هذا القرآن وتعلمته من غيرك . وكان ذلك التصريف والتفصيل لنبينه آى القرآن لقوم يعلمون علم تبصر وانتفاع واهتداء . ومثل هذا قوله تعالى فى سورة الفرقان (وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاؤا ظلماً وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض ، إنه كان غفورا رحيما ٤ ، ٥ ، ٦) وقال تعالى فى سورة النحل (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين . ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب اليم . انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥) ثم قال تعالى : اتبع ما أوحى اليك من ربك الخ . أمر الله رسوله وأمته تبع له باتباع القرآن الذى أنزله

وبتوحيـــده سبحانه ، لا إله إلا هو ، لا معبود بحق سواه ، وأمره بالاعراض عن المشركين ، أى العفو عنهم حتى يأتى الله بأمره فيأذن بقتالهم وينصره عليهم ويظفره بهم . فلله فى اضلالهم حكمة ، ولو شـــاء أن لا يشركوا ما أشركوا . وما جعلناك عليهم حفيظا أى حافظا لأعمالهم رقيبا عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل تتولى جزاءهم ، ان عليك إلا البلاغ المبين ، وقد فعلته وحسابهم على الله .

ثم قال تعالى : ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عـــدوا بغير علم ، كذلك زينا لكل أمة عملهم ، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون (١٠٨)

المعنى العام

رأيت أن انقل هنا كلام ابن كثير بشىء قليل من الاختصار ، فانه حسن وواف بالمرام . قال ابن كثير : يقول تعالى ناهيا لرسوله (ﷺ) والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وان كان فيه مصلحة ، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهى مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين ، وهو الله لا إله إلا هو . قال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس فى الآية ، قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أولنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدوا بغير علم . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فيسب الكفار الله عدوا بغير علم . فأنزل الله ، ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى أنه قال فى تفسير هذه الآية ، لما حضر أبا طالب الموت ، قالت قريش ، انطلقوا فلندخل على هذا الرجل ، فلنأمره أن ينهى عنا ابن اخيه ، فانا نستحى أن نقتله بعـــد موته ، فتقول العرب ، كان يمنعهم ، فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية

وأبي ابناء خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البختري ، وبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب ، قالوا استأذن لنا على ابي طالب ، فأتى أبا طالب فقال ، هؤلاء مشيخة قومك ، يريدون الدخول عليك ، فأذن لهم عليه فدخلوا عليه فقالوا ، يا أباطالب ، أنت كبيرنا وسيدنا ، وأن محمداً ، قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه ، فدعاه فجاء النبي (ﷺ) فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك ، قال رسول الله (ﷺ) ما يريدون ؟ قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا ولندعك وإلهك ، فقال النبي (ﷺ) أرأيتم أن أعطيتكم هذا ، هل أنتم معطو كلمة ، أن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم وأدت لكم الخراج . قال أبو جهل ، وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها ، قال فما هي ؟ قال ، قولوا ، لا إله إلا الله ، فأبوا واشمأزوا ، قال أبو طالب ، يا ابن أخي قل غيرها ، فان قومك قد فزعوا منها ، قال يا عم ما أنا بالذى يقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها فى يدى ، ولو أتوا بالشمس فوضعوها فى يدى ما قلت غيرها فغضبوا ، وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك ، فذلك قوله ، فيسبوا الله عدوا بغير علم. ومن هذا القبيل ، وهو ترك المصلحة لمفسدة ، أرجح منها ما جاء فى الصحيح أن رسول الله (ﷺ) قال ، ملعون من سب والديه ، قالوا يا رسول الله ، وكيف يسب الرجل والديه ، قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه ، أوكما قال عليه السلام . وقوله : كذلك زينا لكل أمة ، أى من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذى كانوا فيه . ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره . ثم إلى ربهم مرجعهم ، أى معادهم ومصيرهم فينبئهم بما كانوا يعملون أى يجازيهم بأعمالهم ، ان خيرا فخير وان شرا فشر . انتهى كلام ابن كثير .

قال مؤلفه : قولــه تعالى : (كذلك زينا لكل أمة عملهم) المراد بالتزيين عدم اجبارهم وقسرهم على اتباع الحق .

ثم قال تعالى : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها. قل انما الآيات عند الله وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون (١٠٩ - ١١٠)

المفردات

ونقلب افئدتهم ، وتقليب الله القلوب والبصائر ، صرفها من رأى الى رأى .
يعمهون ، العمه ، التردد فى الأمر من التحير .

المعنى العام

يقول سبحانه وتعالى ، وحلف المشركون بالله قسما مؤكدا أنهم سيؤمنون إذا رأوا خارقا من الخوارق التى اقترحوها فى قولهم (لن نؤمن لك حتى تفجر لنـــا من الأرض ينبوعا) ، الى آخر ماجاء فى الاسراء ، من ٩٠ - ٩٣ ، وهم فى ذلك كاذبون ، وإنما قالوا ذلك تعنتا وعنـادا ، وقد أمر الله رسوله أن يقول لهم : انما الآيات والخوارق والمعجزات عنـــد الله هو الذى يأتى بها متى شاء . ثم قال تعالى ، (ومـا يشعركم) أى ومـا يدريكم أيها المؤمنون أن الآيات التى اقترحوهـا اذا جاءتهم إنهم يؤمنون بها . وقد علم الله أنهم ، إنما سألوا الآيات تعنتا ومراوغة ، وانهم لوجاءتهم كل آية لا يؤمنون بها . ثم قال تعالى : (ونقلب افئدتهم وأبصارهم) ، أى قلوبهم وأعينهم نصرفها عن الايمان بامهالهم وابقاء النعم عليهم استدراجا لهم كما لم يؤمنوا به أى بالقرآن أول مرة سمعوه فيها ونتركهم فى

ضلالهم يترددون وفى ظلمات كفرهم يتخبطون . ويبين ذلك فى قوله تعالى فى سورة الصف (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين) . فزيغهم سبب ازاغة الله لهم . وفسقهم سبب حرمانهم من هداية الله . وقد تقدم الكلام فى هذا المعنى .

ثم قال تعالى : (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون، ١١٢)

المفردات

القبل ، قال الراغب : يستعمل فى التقدم المتصل والمنفصل ، ويقال ، هو جمع قبيل بمعنى كفيل . وعلى قراءة قبلا ، بكسر ففتح ، أى مقابلة .

المعنى العام

لما أقسم الكفار بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، كذبهم الله بقوله : (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة) ، الآية . وذلك لأن كفرهم ناشىء عن عناد واتباع للهوى ، لا عن جهل أو شك وعدم اقتناع . وما كان كذلك فالآيات والبراهين لا تؤثر فيه ، وإن كانت عظيمة كنزول الملائكة وتكليم الموتى واحضار كل شىء من الدلائل المغيبة أمامهم يشاهدونه عيانا . والله قادر على أن يجبرهم على الايمان بسلبهم الاختيار ، ولكن الله قعن باعطاء الاختيار ، (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فألهمها فجورها وتقواها ، وهديناه النجدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، فاستحبوا العمى على الهدى) . وقوله تعالى : (ولكن أكثرهم يجهلون)

أى لايعلمون ما فيه خيرهم وسعادتهم فيقبلون عليه ، وما فيه شقاؤهم فيبعدون عنه . ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة يونس : (إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية ، حتى يروا العذاب الأليم - ٩٧ ، ٩٨) وأمثال هذا فى القرآن كثير .

ثم قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون ، ولتصغى اليه افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون - ١١٣ ، ١١٤)

المفردات

قال الراغب : أصل القرف والاقتراف ، قشر اللحاء عن الشجر والجلدة عن الجرح . واستعير الاقتراف للاكتساب حسنا كان أو سوءا .

المعنى العام

فى هذه الآية تسلية وتثبيت لقلب النبى (ﷺ) بأخباره تعالى أن هذه سنة الله فى جميع الرسل وفى من اتبعهم بصدق لابد أن يكون له اعداء . كما كان للمرسلين الأولين ، إلا ان النصر مضمون ومحقق لرسول الله ومن اتبعه بصدق كما وقع لإخوانه المرسلين وأتباعهم . ومن خصائص النبى (ﷺ) التى خصه الله بها ولأمته منها نصيب أنه سبحانه نصره بالرعب مسيرة شهر ، يلقى الخوف والذعر فى قلوب أعدائه ، وبينه وبينهم مسافة شهر . ولابد أن تنهزم شياطين الانس والجن أمام جند الله من المرسلين وأتباعهم ، ولاينفع هؤلاء

الشياطين تعاونهم بزخرفة الأقوال والوعود التى يبثها شيـاطين الجن فى قلوب شياطين الانس كما قال تعالى : (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا - النساء : ١٢١) .

وقد جاء مثل هذا المعنى فى مواضع من كتاب الله عز وجل . فمن ذلك قوله تعالى فى هذه السورة : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين : ٣٦) . وقال تعـالى فى سورة الفرقان : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ، وكفى بربك هاديا ونصيرا : ٣٢) . وفى صحيح البخـارى أن ورقة بن نوفل قال لرسول الله (ﷺ) لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودى . وروى أحمد بسنده عن أبى ذر قال : أتيت النبى (ﷺ) وهو فى المسجد ، فجلست فقال : يا أبا ذر ! هل صليت ؟ قلت : لا ، قال : قم فصل ، قال فقمت فصليت ثم جلست فقال : يا أباذر! تعوذت بالله من شياطين الانس والجن ، قال : قلت يارسول الله ؟ وللانس شيـاطين قال نعم . وفى رواية ابن جرير ، هم شر من شيـاطين الجن . وقوله تعالى : (ولوشاء ربك ما فعلوه) . يعنى أن تلك العداوة وقعت بمشيئة الله وله فيها حكمة يظهر فيها نصره لأوليائه على اعدائه ، وضعف كيد الشيطان امام تأييد الرحمن ، وزهوق البـاطل أمام الحق ، وزيادة الأجر والثواب ورفع الدرجات لأوليائه المفلحين بما يصيبهم من أذى الأعداء ، فذرهم أى أتركهم مع مايفترون من الكذب فانه لايعود عليهم إلا بالخسران . وقوله تعالى : (ولتصغى إليه) إلخ . أى لتميل قلوب الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخرة تميل قلوبهم إلى ذلك الوحى الشيطـانى . وليرضوه ، يحبوه وليرتكبوا من الآثام والكفر وعداوة أهل الحق ماهم مرتكبون .

ثم قال تعالى : (أفغير الله أبتغى حكما ، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين (١١١) . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم (١١٦) .

المعنى العام

تقدم أن المشركين أرادوا أن يحاكموا النبي ﷺ إلى عمه أبي طالب ، فأمره الله أن يقول لهم ، أفغير الله أطلب حكما ؟ ان أفعل ذلك أبدا . أنا لا أرضى إلا بحكم الله . والحكم هو الحاكم النزيه الذى لا يحكم إلا بالحق ، وكما أن الخلق والأمر لله ، فالحكم لله وحده . قال تعالى : فى سورة يوسف (إن الحكم إلا لله : ٤١) فأنبياء الله وأتباعهم لا يحكمون إلا بحكم الله ولا يتحاكمون إلا إلى الله ، فهو وحده الحكم والعدل ، وكل حكم يخالف حكمه فهو باطل . قال تعالى فى سورة المائدة : (أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون : ٥١) . وقوله سبحانه : (وهوالذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) . يعنى أن الذى أنزل الكتاب وبين فيه جميع الأحكام لا يعدل عن حكمه إلا خاسر مبطل ، فكيف يطمعون من نبي الله أن يرضى بحكم غير الله ، وإنما أرسله الله ليجاهد فى سبيله حتى يكون الحكم له وحده لا شريك له . وما دخل الخلل والضعف و الخذلان على المسلمين إلا بعد ما جعلوا الحكم لغير الله وابتغوا غيره حكما ، وجعلوا كتابه وراء ظهورهم فعاقبهم الله وجعلهم وراء الناس جزاء وفاقا وقوله تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب) الخ . أخبار منه سبحانه بأن أهل الكتاب علماءهم يعلمون أن القرآن منزل من الله ملازم للحق لا يأتيه الباطل من بين

يديه ولا من خلفه ، ويعلمون أن الرسول محمدا حق ، فلا تكونن من الممترين الشاكين . ومثله قوله تعالى فى سورة يونس : (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين : ٥٥) . ثم قال تعالى : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) الخ . يعنى أن كل ما أخبر الله به فهو حق واقع ، وكل ما حكم به فهو عدل . فما أخبر به أن رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم منصورون وهم الأعلون ، وأن أعداءهم خاسرون مخذولون يلازمهم الخزى والضلال المبين . وكل ما أوجبه الله فى القرآن فالعامل به موفق سعيد ، وتاركه شقى خائب مهين . وكل ما نهى الله عنه فهو مفسدة محققة ومضرة مهلكة . ولن يستطيع أحد أن يبدل كلمات الله ، لا ألفاظها ولا مدلولاتها . وهو السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم وأفعالهم المجازى كلا بما يستحق .

ثم قال : (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون . إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين : ١١٧ - ١١٨) .

المفردات

الخرص ، هو القول بالحزر والكذب .

المعنى العام

هذا خطاب من الله تعالى لرسوله ﷺ يخبره أن أكثر أهل الأرض هم على باطل وضلال ، فلا يستوحش أحد من قلة المؤمنين الصالحين ، ولا يغتر أحد بكثرة الكافرين الضالين . فموافقة الأكثرين خروج عن سبيل الله وضلال .

فأوجب الله على رسوله وعلى المؤمنين به أن يكونوا مع الصادقين وأن يتمسكوا بالحق ولا يغتروا بكثرة أهل الباطل، كما أخبر أن أهل الباطل ليسوا على بصيرة من أمرهم، وإنما يحذرون ويقدرون ويتبعون الظنون الكواذب، بخلاف أهل الحق فانهم على يقين لا شك فيه اطمأنت قلوبهم بالايمان ونشطت اجسامهم للعمل. وقد أخبرنا النبي (ﷺ) كما فى صحيح البخارى من حديث اسماء بنت أبى بكر الصديق أن المؤمن يسأل فى قبره، يقال له: ما علمك بهذا الرجل، فيقول هو محمد، جاءنا بالبينات فآمنا به وصدقنا، واتبعناه، هو محمد، هو محمد، هو محمد، فيقال له: نم صالحا، قد علمنا إن كنت لموقنا به. وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته. فالمؤمن على يقين من أمره فى الدنيا وفى القبر، والمنافق والمرتاب، ليس عنده إلا الخرص والظن فى الدنيا وفى الآخرة (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ثم أخبر تعالى أنه يعلم من ضل عن سبيله وخرج عن الحق واتبع هواه، ويعلم من اهتدى إلى اتباع الحق واستقام على الطريقة واتبع رضوانه، وسيجزى كلا بما يستحقه يوم تجزى كل نفس بما تسعى.

ثم قال تعالى: (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين: ١١٩) ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه، وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم، إن ربك هو أعلم بالمعتدين: ١٢٠).

المعنى العام

يأمر الله تعالى عباده أمر اباحة وامتنان أن يأكلوا كل ما ذكر اسم الله عليه من الذبائح بأن كان ذابحه مسلما موحدا يذكر اسم الله وحده على ذبيحته

ولايذكر معه غيره ، وفى ضمنه النهى عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه أصلا، أو ذكر اسم الله عليه واسم غيره ،كمن يأتى بالذبيحة إلى ضريح أو مكان مما يعظمه المشركون ويقول : الذبيحة على الله وعليك يا سيدى فلان ، وكذلك إذا نواه بقلبه ولولم يسم غير الله إذا ظهرت عليه القرائن كالاتيان بالذبيحة إلى مكان يعظمه المشركون ، وكالذبيحة على الدار الجديدة خوفا من الجن وتزلفا إليهم ، وكالذبيحة التى اعتاد جهال المغاربة أن يذبحوها تعظيما لشخص أو أشخاص من الأحياء أو من الأموات ليقضوا لهم حاجة ، فكل ذلك حرام أهل به لغير الله ، فأكله مع الاستحلال بلاضرورة ينافى الايمان . ولذلك قال تعالى : (ان كنتم بآياته مؤمنين) . ولا يجوز للمؤمن أن يحرم على نفسه شيئــا من الذبائح التى لم يحرمها الله ، وإن حرمها المشركون والجاهلون ، ولذلك قال تعالى : (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقــد فصل لكم) ؛ أي بين لكم ما حرم عليكم فى هذه السورة بقوله تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به) ، وسيأتى الكلام على ذلك فى الآية (١٤٦) من هذه السورة إن شاء الله تعالى . وما حرمه رسوله (ﷺ) كسباع الوحش والطير فهو داخل فى ذلك لقوله تعالى فى سورة الحشر : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا : ٨) . ومن جهال هذا الزمان من يحرم لحوم بعض الحيوان اعتمادا على الأوهام كالشيعة الاثنا عشرية أعنى عوامهم ، فانهم يحرمون نوعا من السمك يسمونه (الجرى) ويزعمون أنه عدو لهم . وقد أخبر سبحانــه أن كثيرا من النــاس يتبعون أهواءهم فيضلون بلا علم ويعتدون فيحلون مــا حرم الله ويحرمون مــا أحل الله ، وهو عليم بهم وسيجزيهم وصفهم .

ثم قال تعالى : (وذروا ظاهر الاثم وباطنه إن الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون (١٢١) ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون (١٢٢) .

المعنى العام

أمر الله تعالى عباده ، أن يتركوا الاثم كله ، أى المعاصى فى خلواتهم وجلواتهم ماظهر من ذلك وما بطن ، علانيته وسره ، فان الله لا تخفى عليه خافية ، ومن أسر سريرة ألبسه الله رداءها ، وما أحسن قول زهير .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ثم أخبر تعالى : بأن الذين يرتكبون المعاصى سيجزون بما كانوا يعملون ، سواء ارتكبوا ذلك سرا أم علانية . روى مسلم فى صحيحه عن النواس بن سمعان أن رسول الله (ﷺ) قال : البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس . معنى ذلك أن المؤمن إذا ارتكب شبهة تنقبض نفسه وتلومه على ذلك ويكره أن يطلع عليها الناس الصالحون فيعيبوا ذلك عليه، فينبغى له أن يترك ذلك وينهى نفسه عنه ويراقب الله تعالى . هذا فى الشبهة ، فكيف بالمعصية الواضحة ، فهى أولى بالتجنب . وقوله تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) إلخ . نهى الله عباده عن أكل الميتة وذبائح المشركين ، وأخبر أن ذلك فسق ، أى خروج عن طاعة الله وارتكاب لمعصيته . أما ذبيحة المسلم التى لم يسم الله عليها ، فان ترك التسمية عمدا فهى حرام وفاقا لجمهور الأئمة وخلافا للشافعى رحمه الله . وأما ان ترك التسمية سهوا فالصحيح جواز أكلها ،

وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد ، وهو المروى عن جماعة من الصحابة . وقوله تعالى : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) إلخ . روى أبوداود بسنده إلى ابن عباس قال : جاءت اليهود إلى النبى (ﷺ) فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ، فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ، الآية . وقد انتقد الامام ابن كثير ذكر اليهود فى هذا الحديث ، لأنهم هم أيضا يحرمون الميتة ، ولأن الآية مكية فلم يشهد اليهود نزولها ، وصح الرواية التى ليس فيها ذكر اليهود ، يعنى أن ذلك الاعتراض لم يقع من اليهود ، وإنما وقع من المشركين بمكة أوحت به إليهم شياطينهم ليجادلوا النبى (ﷺ) والمسلمين ، وهو مغالطة، لأن الله لم يقتل البهيمة الميتة ، وإنما أماتها بمرض ونحوه كسقوط من شاهق وضربة مميتة ولدغة حية و افتراس سبع ، ولوسلمنا أن ذلك يسمى قتلا لم تكن لهم حجة فيما جادلوا به ، لأن الله تعالى هو الذى قتل المذبوحة أيضا وأباحها لنا إذا ذكر اسمه عليها ، ولم يبح لنا سواها . وقوله سبحانه ، (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) . فيه أن من وافق المشركين فى تحليل ماحرم الله كلحم الخنزير مثلا فهو منهم . وقد رأيت أكثر الطلبة فى أوربة من أهل البلاد الاسلامية يأكلون لحم الخنزير ويجادلون من امتنع من أكله ويعدونه رجعيا ، فيا حبذا الرجعية التى ترجع بنا إلى زمان محمد رسول الله وخلفائه ودول الاسلام وعزة الاسلام حين كان الخليفة فى بغداد ينظر إلى السحابة فى السماء فيقول لها ، أمطرى حيث شئت فان خراجك سيصل إلى ، ولعنة الله على التقدم الذى يجعل دولته فى أسفل سافلين وأذل الأذلين ولا حول لها ولا طول ، لا تستطيع أن تأخذ حقا ولا أن ترد عدوانا ذليلة فى السماء ذليلة فى الأرض ذليلة فى البر ذليلة فى البحر، مفلسة تمد يدها تتكفف النول الغنيــة ، عالة على غيرها حتى فى الابرة وأعواد

الكبريت ، فنعوذ بالله من هذا التقدم الذى هو عن التأخر والسقوط .

ثم قال تعالى : (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ١٢٥)

المعنى العام

ضرب الله سبحانه مثلا للمؤمنين والكافرين ، فأخبر أن من كان كافرا فأسلم كمن كان ميتا فأحياه الله وأعطاه نورا يسير به فى الناس يعرف به ما ينفعه ويرفعه فيرغب فيه ويأتيه ، وما يضره ويخفضه فيرغب عنه ويذره . أما من بقى على كفره ، فهو ميت فى ظلمات ، ظلمة فى عقيدته لجهله بالحق واعتقاده الباطل ، وظلمة فى أخلاقه ، إذ ليس له وازع يمنعه من ارتكاب مساوىء الأخلاق ، وظلمة فى معاملته للناس إذ ليس عنده شىء من مراقبة الله وخشيته حتى يعامل الناس بالعدل والرحمة فهو فى ظلمات متنوعة . وقد جاء هذا المعنى فى مواضع كثيرة من كتاب الله ، قال تعالى فى سورة البقرة : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياءهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون : ٢٥٨) وقال تعالى فى سورة فاطر: (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣) . وقوله سبحانه : (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) . تقدم معنى تزيين العمل إذا أسند الى الله تعالى ومعناه إذا أسند إلى الشيطان فى تفسير الآية (١٠٩) . ولا بد من التمييز بينهما .

ثم قال تعالى : (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما

يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون : ١٢٤) وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون : ١٢٥)

المعنى العام

قوله عز وجل : (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) ، الخ . خير ما يفسر به القرآن القرآن . وقد جاء هذا المعنى فى مواضع من الكتاب العزيز قال تعالى فى سورة الفرقان : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين : ٣٢) وتقدمت الاشارة إلى معناه ، والتنبيه هنا واقع بين المجرمين الأكابر فى مكة وسائر البلاد العربية الذين حاربوا الاسلام فى أول ظهوره واستمروا فى محاربته حتى خذلهم الله ، وبين المجرمين الأكابر من رؤساء الأمم السالفة الذين قادوا أتباعهم من المستضعفين إلى الضلال والهلاك . وقال تعالى فى سورة الاسراء : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا : ١٧) . أى أمرناهم بالطاعة والعدل والاحسان ففسقوا عن أمر ربهم فأهلكناهم اهلاكا . وقوله سبحانه (ليمكروا فيها) ، اللام للعاقبة كما فى قوله تعالى فى سورة القصص : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا : ٩) فانهم لم يقصدوا بالتقاطه ان يكون عدوا لهم وحزنا بدليل قول امرأة فرعون فى الآية التى تليها ، (قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) ، ولكن آل الأمر إلى أن كان لهم عدوا وحزنا ، كقول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى ذهاب

وقال الآخر :

فللموت تغذوا الوالدات سخالها ... كما لخراب الدهر تبنى المساكن

والوالدات لا تغذو صغارها ليموتوا ، بل تغذوهم ليعيشوا ، ولكن مآلهم إلى الموت ، وكذلك الذين يبنون البيوت لا يبنونها بقصد التهدم والخراب ، بل لتبقى مدة من الزمان طويلة ، ولكن مآلها إلى التداعى والخراب ، ومكر الرؤساء هنا تزيينهم الظلم والفسق وسائر المنكرات واقبالهم عليها فيتبعهم الضعفاء والغوغاء فيعمهم الله بعذابه ويدمرهم تدميرا . وقوله تعالى : (وما يمكرون إلا بأنفسهم) ، إلخ . يعنى أن وبال مكرهم يعود عليهم لكنهم لايشعرون بذلك فى وقت مكرهم . ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة فاطر: (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله : ٤٤) . ثم قال تعالى: (وإذا جاءتهم) آية . إلخ . يعنى أن هؤلاء المجرمين الجاحدين المعاندين إذا جاءتهم أى ظهرت لهم معجزة تبرهن على صدق الرسول ازدادوا عنادا وركبوا رءوسهم وقالوا بلاحياء ، لن نؤمن حتى نعطى مثل ما أعطى رسل الله فتنزل علينا الملائكة بالوحى كما نزلت على الرسل . ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة الفرقان : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا : ٢٢) . ثم قال تعالى ردا عليهم : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ، يعنى الله يعلم من يستحق أن يوحى اليه ويكون رسولا إلى عباده . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ليس بأمانيهم ولا أمانى أهل الكتاب . ومثل ذلك قوله تعالى حكاية عنهم فى سورة الزخرف : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم : ٣٢) . فرد الله عليهم بقوله (أهم يقسمون رحمة ربك) ؟ . ثم أوعد الله هؤلاء المجرمين ببأسه الذى لايرد عنهم فقال (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) ، وهذا وعيد شديد لأكابر المجرمين وأتباعهم وأعوانهم فى كل زمان ومكان لا يتخلف أبدا ، فمتى فسد نظام المجتمع الحق وزال العدل وحل محله الجور واستبد الأقوياء وصاروا

لا يحسبون أى حساب للضعفاء فلابد أن يصيبهم الصغار عند الله وعند النـــاس فيذلهم الله ، والدليل على أن هذه الذلة تصيبهم فى الدنيا وفى الآخرة قوله تعالى فى سورة الأعراف : (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيــا) . فالذين اتخذوا العجل كانوا أكابر المجرمين من قوم موسى حين غاب عنهم لمنــاجاة الله وخلف عليهم أخاه هارون فاستضعفوه وكادوا يقتلونه حين أنكر عليهم عبادة العجل الذهبى الذى صنعه موسى السامرى ، وكان ذلك من مكره ومكر شيعته ، إذن فلا نجاة لأكابر المجرمين ولامناص لهم فى كل أمة وفى كل قطر وفى كل زمان إذا مكروا فى بلدهم وفى شعبهم من الصغــار والعذاب الشديد فى هذه الدنيا وفى الآخرة .

ثم قال تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون : ١٢٦) . وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون : ١٢٧) .

المعنى العام

قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه) ، إلخ . يعنى أن من طلب الهدى والحق ونهى نفسه عن هواها ، فقد أراد الله هدايته فهو يشرح صدره أى يفتحه ويوسعه للاسلام ويحبب له الايمــان ويزينه فى قلبه ويكره له الكفر والفسوق والعصيــان ، فيطمئن قلبه وتسعد نفسه وتنزل عليه السكينة ، وأما من اتبع هواه ونأى عن الحق وبادر إلى رفضه فان الله يريد إضلاله ويجعل صدره ضيقــا حرجا قد سدت عنه طرق الهدى والنور كالانسان الذى يريد الصعود إلى السماء

فهو لا يستطيع ذلك ، فكذلك من تكبر عن الحق وزاغ أزاغ الله قلبه فلا يهتدى إلى الحق ألبتة . وقد فسر العلماء فى هذا الزمان ذلك بمن يريد أن يخترق الغلاف الهوائى المحيط بالأرض فهو لا يكاد يستطيع ذلك ولا يقاربه ، بل متى ارتفع فى الجو بجناحين طبعيين كأجنحة الطير أو صناعيين كالطائرات متى ارتفع بضعة أميال أحس بضيق شديد لقلة الهواء الذى يتنفسه ورقته ، فاذا لم يصطحب هواء معه لا يستطيع أن يرقى إلى قمم الجبال الشامخة ، كأعلى جبال هملايا ، وهو من الأرض ، فكيف يستطيع أن يخترق جوا الأرض و يخرج منه ؟ ذلك مستحيل . وكذلك من زاغ عن كتاب الله وسنة رسوله لا يدخل الهدى قلبه أبدا . فان قلت قد استطاع الناس فى هذا الزمان أن يخترقوا هذا الحجاب وينفصلوا عن الأرض انفصالا تاما بحيث لا يبقى لها عليهم سلطان تجذبهم به إلى ظهرها ، ثم إلى جوفها اذا لم يوجد حاجز . والسلطان الذى يبقى لها عليهم كالسلطان الذى لها على القمر ، وهو ضعيف ، لا يمنعه من الخروج من جوها . فالجواب ما قاله علماء هذا الزمان فى قوله تعالى فى سورة الرحمن (يا معشر الجن والانس ان استطعتم من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان : ٢٤) تحدى الله الجن والانس أن يخرجوا من جوانب السماوات وجوانب الأرض فارين من قضائه إن استطاعوا ذلك . ثم أخبر أنهم لا يستطيعون ذلك إلا بقوة وقدرة ، وليس لهم تلك القوة . قالوا : هذا إذ أرادوا أن يفروا من قضاء الله إلى حيث لا يشملهم ولا يأتى عليهم ، وأما إذا أرادوا أن يخرجوا من أقطار السماوات والأرض صائرين من قضاء الله الى قضاء الله سالكين سنة الله فى

استخراج المجهول من المعلوم فلا مانع من أن يمنحهم الله ذلك السلطان، بأن يلهمهم صنع الوسائل التى تعينهم على ذلك كالصواريخ الدافعة وسفن الفضاء المحكمة، والله أعلم.

وقد ورد فى تفسير هذه الآية حديث رواه أئمة التفسير بطرق متعددة مجموعها يكسبه درجة الحسن فلابد من ذكره. روى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود لما نزلت هذه الآية، سئل النبى (ﷺ) عن شرح الصدر، فقال، نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فينشرح له وينفسح، قيل: فهل لذلك أماره قال نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت. قوله تعالى، (كذلك يجعل الله الرجس) إلخ. اختلف أقوال المفسرين فى الرجس، فقال بعضهم: هو العذاب، وقال بعضهم: هو الشيطان، وقال بعضهم: الرجس، كل ما لا خير فيه. أقول: إنه يدل على ذلك كله، لأن اتباع الشطيان مستلزم للعذاب ولا خير فيه. والذين لا يؤمنون عناداً متبعون للشيطان وبعيدون من الخير. قال تعالى فى سورة مريم (الم تر أنا ارسلنا الشيطان على الكافرين تؤزهم أزا: ٨٣) أى تهزهم وتغريهم بالكفر والطغيان. وقوله تعالى، (وهذا صراط ربك مستقيما)، إلخ. يعنى أن هذا الأمر الذى أنت عليه وقد أمرك الله به، هو صراط الله المستقيم، من اتبعه سعد ونجا، ومن خالفه شقى وهلك. (قد فصلنا الآيات)، أى بيناها (لقوم يذكرون)، أى يتعظون وينتفعون بها، وأما غيرهم فسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

ثم قال تعالى: (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون: ١٢٨). ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا، قال

النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم : ١٢٩) . وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون : ١٣٠) .

المعنى العام

قوله سبحانه : (لهم دار السلام) ، إلخ . يعنى أن المؤمنين المتبعين لكتاب الله لهم دار السلام عند ربهم ، وهى الجنة ، سميت بذلك ، لأن من دخلها فقد سلم من عذاب الله ومن كل شر وظفر بكل خير ، وهو أى ربهم وليهم تولاهم فى الدنيا بالهداية والتأييد والنصر على أعدائهم ، وتولاهم فى الآخرة بمغفرته ورضوانه وأدخلهم دار كرامته . وهذا شأن أولياء الله . قوله تعالى : (ويوم يحشرهم) ، أى يحشر الله الجن والانس ، فيقول لهم ، يا معشر الجن قد استكثرتم من اضلال الانس وإغوائهم ، فيقول أولياؤهم الذين كانوا يعبدونهم ويتبعون خطواتهم ويأتمرون بأمرهم يا ربنا استمتع بعضنا ببعض . فاستمتاع الانس بالجن أنهم كانوا يعوذون بهم كما قال تعالى فى سورة الجن (وإنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا : ٧) . قال ابن جرير وغيره : كان العرب فى الجاهلية إذا نزلوا واديا يقولون : نعوذ بكبير هذا الوادى من سفهاء قومه ، وأما استمتاع الجن بالانس فهو ما ينالونه منهم من التعظيم والذبح لهم والخضوع والتذلل . ومن أطاع الله من الفريقين يكون أنسة واستمتاعة وفرحة به سبحانه مستغنيا عن غيره ، وذلك هو الفوز العظيم . فيقول الله لهم : (النار مثواكم) ، أى مأواكم ومسكنكم خالدين فيها إلا ما شاء الله من إخراج الموحدين من أمة الاجابة فبعد استيفاء ما قدر لهم من العذاب على ما ذهب اليه أهل السنة والجماعة من عدم خلود الموحدين فى جهنم اعتمادا على الأحاديث الصحيحة المروية عن النبي (ﷺ) . ومثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة هود : (فأما

الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيهـــا ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد : ١٠٧ ، ١٠٨) . وفى ذلك رد على المعتزلة والخوارج القائلين بأن كل من دخل النار يخلد فيهـــا ، وإن كان موحدا . وقوله تعالى : (إن ربك حكيم) . فمن حكمتـــه ، إثابة المطيع وتعذيب العاصى بالكفر مع تخليده فى العذاب ، وتعذيب العاصى من الموحدين على قدر ذنوبه . عليم أحاط علمه بكل شىء . فكل ما فعله أو شرعه فهو صادر عن علم وحكمة . قوله تعالى : (وكذلك نولى بعض الظالمين) إلخ . قال قتادة فى تفسير هذه الآية : إنما يولى الله الناس بأعمـــالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن من أين كان وحيث كان ، والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان ، ليس الايمـــان بالتمنى وفسرها بعض السلف ، بأن الله يسلط الظـــالمين بعضهم على بعض سواء كانوا من الجن أم من الانس واستشهد بقوله تعالى فى سورة الزخرف : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين : ٣٧) . وقال تعـــالى فى سورة فصلت : (وقيضنـــا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس إنهم كانوا خاسرين : ٢٦) . وروى ابن عساكر عن ابن مسعود مرفوعا ، من أعان ظالما سلطه الله عليه . قال الحافظ ابن كثير: حديث غريب . وقال الشاعر :

وما من يد الا يد الله فوقها　　　ولا ظـــالم الا سيبـلى بظـالم

قال ابن كثير : ومعنى الآية الكريمة ، كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض . وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

ثم قال تعالى : (يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون

عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين : ١٣١) .

المعنى العام

قوله تعالى ، (يا معشر الجن والانس) ، ألخ . يسأل الله سبحانه الكافرين من الجن والانس يوم القيامة سؤال تقرير وتوبيخ ، ألم يجئهم رسل منهم ، أى من مجموعهم ، لأن الرسل لم يكونوا إلا من الانس وحدهم ، فهو كقوله سبحانه فى سورة الرحمن (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان : ٢٢) . فالضمير فى منهما يعود على البحرين ، العذب والملح ، وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح وحده . وقوله تعالى : (يقصون عليكم آياتى) ، أى يتلون عليكم كلام الله ويفصلون لكم أوامره ونواهيه ويحذرونكم من عذابه . فى هذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، فيقول أولئك المسئولون ، (شهدنا على أنفسنا) . ونحن مقرون بأن الرسل قد جاءونا وبلغونا أوامرك ، ولكن غلبت علينا شهواتنا وشقوتنا وآثرنا الحياة الدنيا و لم نستطيع أن نكبح جماح أنفسنا الأمارة بالسوء . ثم قال تعالى ذاما لهم ، (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . فان قيل : فكيف نوفق بين هذه الآية والتى تقدمتها فى أول السورة (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين : ٤٢) فالجواب أنهم حين يرون أهوال يوم القيامة ، لأول مرة يصيبهم فزع عظيم فيكذبون ويجحدون شركهم حتى اذا شهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وشهدت عليهم رسلهم لم يسعهم الانكار فيعترفون بجرائمهم .

ثم قال تعالى : (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون : ١٣٢) (ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل يعملون : ١٣٣)

المعنى العام

قوله سبحانه ، (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى) ، الآيتين . الاشارة الى إرسال الرسل مبشرين ومنذرين إقامة للحجج على المرسل اليهم ، لأن الله حكم عدل لا يهلك الأمم بسبب ظلم كبير ، وهو الشرك ، أو أقل منه ، وهو ظلم الناس بعضهم بعضا وهم غافلون لم تبلغهم رسالة رسول ولا تلى عليهم كتاب الله ولم ينذروا ولم يحذر اليهم . وقيل : معناه لم يكن ربك ليهلك الأمم ظالما لهم قبل اقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل . وفى جعل الظلم بنوعيه سببا لاهلاك الأمم تنبيه على فظاعته وتحذير للجماعات و الأفراد من عواقبه الوخيمة ، يوضح ذلك قوله تعالى فى الآية التى سبقت من هذه السورة (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون : ٨٣) نفهم من ذلك أن الظلم سبب الهلاك الأعظم ، وأن ضده ، وهو العدل ، سبب الأمن ، فمن أراد الأمن من عذاب الله من الجماعات والأفراد ، فعليه أن يتمسك بالعدل ويتجنب الظلم ، أعاذنا الله منه ومن أهله . ثم قال تعالى : (ولكل درجات مما عملوا) . أى لكل جماعة أو فرد درجات فى الثواب والعقاب على حسب أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فعمل الانسان وحده هو الذى يرفعه أو يخفضه ، وهو الذى يسعده أو يشقيه . والقرآن الكريم مشحون بهذا المعنى ، قد تكرر فيه كثيرا بعبارات مختلفة . وقوله تعالى : (وما ربك بغافل عما يعملون) . يعنى أن الله بالمرصاد لكل عامل يرقب عمله لا يخفى عليه منه شىء ويجازيه بما عمل ، وباب التوبة مفتوح ، ومن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ويغفر له .

ثم قال تعالى : (وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين : ١٣٤ ، ان ما توعدون لآت وما أنتم

بمعجزين : ١٣٥) قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون ، من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون : ١٣٦) .

المعنى العام

قوله تعالى : (وربك الغنى ذو الرحمة) ، الخ . الخطاب للنبى (ﷺ) ثم لكل من يصلح للخطاب فأخبر أنه الغنى عن جميع من سواه ، الغنى المطلق ، وليس ذلك لأحد من خلقه . وهو مع ذلك رحيم بهم رؤف عليهم كما قال تعالى فى سورة الحج (إن الله بالناس لرؤف رحيم : ٦٦) ثم أخبر سبحانه وتعالى : أنه هو المتصرف فى خلقه لا يشاركه فى ذلك أحد ينصر من أطاعه من الأمم ويرفع قدرهم ويعينهم فى جميع أمورهم وينجح مساعيهم ويهلك من كفر به وعصى أمره واتبع هواه واتخذ الشياطين أولياء من دون الله فيذهب قوما ويسلبهم نعمته ويأتى بآخرين مكانهم ليبتليهم ، فمن شكر زاده ، ومن كفر أباده ، وذلك هين يسير عليه (إنما أمرنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) . وقوله سبحانه ، (ما يشاء) ، هو بمعنى من يشاء . وقد تستعمل ما للعاقل كما قال تعالى فى سورة النساء (فانكحوا ما طاب لكم من النساء :)

وقوله سبحانه : (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ، زيادة فى الايضاح وتقرير للمعنى فى ذهن القارئ والسامع ، أى كما أذهب القوم الذين أنتم ذريتهم واستخلفكم فى الأرض مكانهم ، هو قادر على إذهابكم واستخلاف من يشاء بعد ذهابكم ، فان أسأتم التصرف فيما استودعكم عوقبتم فى الدنيا والآخرة وتركتم خلفكم ذكرا سيئا تذكرون به . وهذا المعنى تكرر وروده فى مواضع متعددة من الكتاب العزيز بعبارات متشابهة يفسر بعضها بعضا . قال تعالى فى سورة النساء : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديرا : ١٣٤) وقال تعالى : فى

سورة فاطر (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز) . وقال تعالى فى سورة محمد (ﷺ) (والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) . وقوله تعالى : إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) . أى أن الذى توعدونه من البعث والجزاء واقع لا محالة ، ولا تستطيعون أن تفلتوا منه . أخرج ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية بسنده الى أبى سعيد الخدرى عن النبى (ﷺ) قال : يا بنى آدم ان كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده ، إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين . وقوله تعالى : (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم) الخ . يقول سبحانه : قل يا محمد لقومك المكذبين لك المحاربين لما جئت به من الهدى ، اعملوا على مكانتكم ، أى استمروا على ما أنتم عليه من الكفر بالله ومحادة الله ورسوله فنحن معشر المؤمنين مستمرون على طاعة الله والتمسك بهذا الدين ، وانتظروا عاقبة عملكم التى حذرتكم منها إنا منتظرون ما وعدنا الله به من النصر عليكم والفتح المبين والتمكن من نواصيكم والقضاء على أهل الباطل . وسترون بأعينكم من تكون له عاقبة الحسنة . ولا شك أنها تكون لنا لا لكم ، لأنكم ظالمون بالشرك وارتكاب الآثام . وقد قضى الله أن الظالمين لا يفلحون أبدا . وقد تكرر مثل هذا التهديد فى الكتاب الكريم ، قال تعالى : فى سورة هود مخاطبا رسوله الصادق المصدوق (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون . وانتظروا انا منتظرون : ٢٢ - ٢٣) عن ابن عباس ، على مكانتكم ، ناحيتكم . قال تقى الدين : وفى هذا التهديد وما شاكله من آيات الكتاب المبين التى نزلت فى مكة حين كان النبى (ﷺ) مستضعفين ، وعدوهم قوى ، كثير العدد والعدد فيه معجزة عظيمة بادية للعيان يدركها كل من يقرأ القرآن ويفهم معناه

على أى اعتقاد كان ، اذا ترك التعصب جانبا ؛ ورضى بالحق صاحبا . ومن الآيات المتضمنة لمثل هذا التهديد قوله تعالى فى سورة المؤمن (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار : ٥٢ - ٥٣) . وقال تعالى فى سورة المجادلة : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز : ٢٢) وقال تعالى فى سورة ابراهيم (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين : ١٤) (ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد : ١٥) . وقال تعالى فى سورة النور : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير : ٥٦ - ٥٨) . وقد أنجز الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . فماذا يقول المرتدون عبيد الاستعمار وسماسرته الذين يعظمون الحقير مما يدعونه من العلم والعمل ، ولا علم عندهم ولا عمل . ويحقرون العظيم من علم النبى (ﷺ) والسلف الصالح وأعمالهم الباهرة الخالدة .

ثم قال تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون : ١٣٧)

المفردات

قوله تعالى ، ذرأ ، خلق وأوجد .

المعنى العام

قوله تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ) الخ . سأنقل تفسير الخازن لهذه الآية فانى وجدته مع سهولة عبارته وافيا بالمرام . قال الخازن : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) الآية . لما بين الله عزوجل قبيح طريقة الكفار وما كانوا عليه من إنكار البعث وغير ذلك عقبه بذكر أنواع من جهالاتهم وأحكامهم الفاسدة تنبيها على ضعف عقولهم وفساد ما كانوا عليه فى الجاهلية فقال تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ) أى خلق من الحرث ، يعنى الزرع والثمر ، والأنعام ، يعنى ومن الانعام ، وهى الابل والبقر والغنم نصيبا ، يعنى قسما وجزءا . قال المفسرون : كان المشركون فى الجاهلية يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيبا وللأصنام نصيبا ، فما جعلوه من ذلك لله صرفوه الى الضيفان والمساكين ، وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها ، فان سقط شئ مما جعلوه لله فى نصيب الأوثان تركوه ، وقالوا : إن الله غنى عن هذا . وان سقط شئ من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان ، وقالوا ، انها محتاجة اليه . وكانوا اذا هلك شئ مما جعلوه لله لم يبالوا به ، واذا انتقص شئ مما جعلوه للأوثان جبروه مما جعلوه لله . فذلك قوله ، (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا) ، وفيه اختصار ، تقديره ، وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا (فقالوا ، هذا لله بزعمهم) يعنى قولهم الذى هو بغير حقيقة ، لأن معنى زعم حكاية قول يكون مظنة الكذب . ولذلك لا يجئ إلا فى موضع ذم لقائليه . وانما نسبوا الى الكذب فى قولهم ، هذا لله بزعمهم ' وان كانت الأشياء كلها لله لاضافتهم نصيب الاصنام مع نصيب الله ، وهو قولهم

(وهذا لشركائنا) يعنى الأصنام ، وإنما سموا الأصنام شركاء ، لأنهم جعلوا لها نصيبا من أموالهم ينفقونه عليها (فما كان لشركائهم) يعنى ما جعلوه لها من الحرث والأنعام (فلا يصل الى الله) يعنى فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان (وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) والمعنى ، أنهم كانوا يقرون ما جعلوه للأصنام مما جعلوه لله ، ولا يقرون ما جعلوه لله مما جعلوه للأصنام وقال قتادة : كانوا اذا أصابتهم سنة ، أى قحط وشدة استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا ما جعلوه لشركائهم ولم يأكلوا منه شيئا . وقال الحسن والسدى كانوا اذا هلك ما جعلوه لشركائهم أخذوا بدله مما جعلوه لله ، ولا يفعلون ذلك فيما جعلوه لشركائهم ، فذلك ذمهم الله تعالى فقال ، (ساء ما يحكمون) يعنى بئس ما يحكمون ويقضون ، وذلك أنهم رجحوا جانب الأصنام على جانب الله تعالى فى الرعاية والحفظ . وهذا سفه منهم . وقيل : إن الأشياء كلها لله عزوجل وهو خالقها ، فلما جعلوا للأصنام جزءا من المال ، وهى لا تملك ولا تخلق ولا تضر ولا تنفع فسبوا الى الاساءة فى الحكم . والمقصود من ذلك بيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من هذه الأحكام الفاسدة التى لم يرد بها شرع ولا نص ولا يحسنها عقل .

قال تقى الدين : عندى وجه آخر فى تفسير هذه الآية أخذته من حديث النبى ﷺ وهو أن المشركين يشركون بالله فى صدقاتهم فيجعلون بعض أموالهم صدقة لله يعطونها المساكين لوجه الله ، ويجعلون بعض أموالهم نذورا وصدقات للآلهتهم وأوليائهم وشركائهم من الملئكة والجن والانس والأشياء المنسوبة اليهم من هياكل وتماثيل وصور ، وهى الأصنام ، وقباب وأحجار وأشجار ومياه

وغير ذلك من الجمادات ، وهى الأوثان . فما كان من الصدقات والنذور لشركائهم فلا يصل الى الله ، أى لا يتقبله الله ، لأنه لم يقصد به وجه الله . وما كان لله من صدقاتهم ونذورهم فهو يصل الى شركائهم ، لأن الله لا يقبله ، بل يتركه لأولئك الشركاء ، لأنه خير الشريكين ، فلو أن شخصا تصدق الله بقناطير مقنطرة ، وتصدق لغير الله بأقل شىء من ماله لرد الله كل تلك القناطير وتركها لذلك الشريك ولم يقبلها أبدا لقوله تعالى فى سورة المائدة : (انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار : ٧٣) وقال تعالى فى سورة الحج (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق : ٣٢) فالآيتان تدلان على أن المشرك هلاكه محقق وحرمانه من كل خير متيقن ، فلا ينتفع بشىء من عباداته لله ، لأن الله لا يقبل منها شيئا . يزيد ذلك وضوحا قوله تعالى فى سورة الزمر (ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين : ٦٦، ٦٧) وقوله تعالى فى سورة الكافرين (ولا أنتم عابدون ما أعبد) مع أنهم كانوا يعبدون الله بالصدقة والحج وغير ذلك ، ولكن لما كانت عبادتهم مردودة وأعمالهم محبطة ، صارت عبادتهم كالعدم . وعلى هذا تكون صدقات المشركين ونذورهم لله مردودة عليهم صائرة الى نصيب شركائهم . وتفسير الآية على هذا الوجه مبنى على تفسير القرآن بالقرآن ، يضاف الى ذلك حديث النبى ﷺ الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة مرفوعا ، قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك معى

فيه غيري تركته وشركه . وفى رواية ابن ماجه ، فأنا منه برئ ، وهو الـذى أشرك . ثم قال تعالى : (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون : ١٣٨ .)

المعنى العام

قوله تعالى : (وكذلك زين لكثير من المشركين) الخ . أى كما زينت الشياطين للشركين أن يجعلوا لغير الله من الشركاء نصيبا من أموالهم زينوا لهم أيضا قتل أولادهم خوفا من الفقر أو خوفا من العار بزعمهم ، فقد حكى الله عنهم أنهم كانوا يقتلون أولادهم خوفا من الفقر . وحكى عنهم أيضا أنهم كانوا يئدون بناتهم ،كما قال تعالى ﴿ وإذا المؤودة سئلت بأى ذنب قتلت ﴾ فى سورة التكوير ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون : ٥٩ ، ٦٠ ﴾ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أحد السببين الحاملين لهم على قتل أولادهم ، وسيأتى فى آخر هذه السورة . وأما سبب وأدهم للبنات فقد جاء فى الأخبار أنهم كانوا يئدون البنات خوفا من أن يكبرن فيأتين بفاحشة يصيب الوالد عارها .

وقوله تعالى . (ليردوهم) ، أى ليهلكوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم ، أى يخلطوا الحق بالباطل . وقد ثبت بالتجارب التى لا تدع للشك مجالا أن دين الحق متى بدل بخلطه بالبدع وتحريف إعراضه يكون ضرره أكثر من نفعه ، هذا اذا بقى فيه نفع . وأصدق دليل على ذلك حال المسلمين عامة ، والعرب خاصة . فقد تحير الباحثون من الأوربيين فى شأنهم حتى قال بعضهم : أنه يكاد يشك فى كون هذا

الجيل من المسلمين والعرب هم أبناء أولئك الذين أدهشوا العالم بعلومهم وأعمالهم.
وقوله تعالى (ولو شاء ربك مافعلوه) يدل، كما قال أهل السنة أصحاب الحديث نضر الله وجوههم، على أنه لا يقع فى ملك الله إلا ما يشاءوه مشيئة كونية قدرية. وهم يفرقون بين المشيئة القدرية والمشيئة الشرعية، فهو سبحانه شاء للكافر أن يكفر وللفاجر أن يفجر، ولكنه لم يرض ذلك ولم يشرعه. قال تعالى (فذرهم وما يفترون) أى دعهم مع افترائهم فان وباله عائد عليهم ولاحق بهم.

ثم قال تعالى: (وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون: ١٣٩) (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم. ١٤٠)

المفردات

قال الراغب: والحجر الممنوع منه بتحريمه.

والمعنى العام

قوله تعالى: (وهذه أنعام) الخ. اعلم أن المشركين الأولين من العرب كانت لهم شرائع ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان. فمن ذلك البحيرة، وهى الناقة التى ولدت عشرة أبطن، يبحرون أذنها أى يشقونها، ويسيبوها فلا تركب ولا يحمل عليها، ومن ذلك الحامى، وهو الفحل من الابل الذى ضرب، فولد من ضرابه عشرة أبطن، يقولون حمى ظهره ويحرمون ركوبه. ومنها أن الشخص منهم كان يقول اذا مرض، مثلا، إن شفيت فهذه الناقة

سائبة . فإذا شفى يسيبها فلا تركب ولا تحلب ولا يحمل عليها . ومنها ، أنهم كانوا اذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، وان ولدت ذكرا فهو لآلهتهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى معا ، قالوا ، وصلت الأنثى أخاها ، فيحرمون ذبح الذكر من أجل ذلك . فالانعام هى الابل والبقر والغنم . وقوله (حرمت ظهورها) أى حرموا ركوبها ، وهى ما تقدم من البحيرة والسائبة والحامى . وقوله ، حجر ، أى محجورة محرمة ، لا يطعمها أى لا يأكل منها إلا من شاءوا ، وهم خدام الأصنام والرجال دون النساء . وقوله ، (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ،) هى التى يذبحونها أو ينحرونها للأصنام او الأوثان ، لا يذكرون اسم الله عليها ، وانما يذكرون اسم الأصنام . وقوله سبحانه ، وحرث ، يفهم منه انهم كانوا يجعلون شيئا من الحرث والزرع لأصنامهم ويحرمونه على أنفسهم . ولم أجد فى التفاسير التى عندى تفصيلا فى شأن الحرث . وقوله ، افتراء عليه . معناه أنهم كانوا ينسبون كل تلك البدع والضلالات الى الله ويجعلونها من دينه كذبا وبهتانا . قال تعالى : (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى يعذبهم بسبب كذبهم عليه بنسبة ذلك اليه . ومثل هذا قوله تعالى فى سورة يونس (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون : ٦٠) وهذا يشمل كل من حرم شيئا برأى أو تقليد ليس عنده فيه دليل من كتاب الله ولا من حديث رسول الله ، وكذلك من أفتى فى شئ أنه حلال بدون دليل ، كالفقهاء الذين يحرمون المرأة على زوجها بلا برهان ويحللونها اذا حرمت بزعمهم ، أو حقيقة بتزويجها من المحلل الذين لعنه النبى ﷺ ولعن من رضى به وسماه التيس المستعار .

وعن عبد الله بن مسعود قال : لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له . رواه احمد والنسائى والترمذى وصححه ، وفى الباب عن على ، أخرجه الأربعة إلا النسائى . . قوله تعالى : (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام) الخ . قال ابن عباس: فهو اللبن ، كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم . وكانت الشاة اذا ولدت ذكرا ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وان كانت انثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك . وقال الشعبى ، البحيرة لا يأكل من لبنها الا الرجال ، وان مات منها شئ أكله الرجال والنساء . وقوله تعالى ، (سيجزيهم وصفهم) معناه ، سيجزيهم جزاء وصفهم المكذوب على الله فى تحليل ما حرم وتحريم ما أحل . إنه حكيم ، له الحكمة البالغة فى قدره وشرعه واقواله وافعاله ، عليم بمصالح عباده ، يحل لهم ما فيه خيرهم ، ويحرم عليهم ما فيه ضرهم ، فلا يرغب عن نوعه إلا من سفه نفسه .

ثم قال تعالى : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين : ١٤١)

أخبر سبحانه أن أولئك المشركين ومن فعل فعلهم فى قتل أولادهم وتحريم ما رزقهم الله واشراكهم بالله وافترائهم عليه ما لم يشرعه قد خسروا أعظم الخسران وضلوا أبعد الضلال ، وما كانوا مهتدين فى علم الله ، فانه سبحانه عالم فى الأزل بما سيعملونه . عن ابن عباس قال : اذا سرك أن تعلم جهل العرب ، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الانعام : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) الخ . أخرجه البخارى فى باب مناقب قريش من صحيحه . قال تقى الدين : والعجب كل العجب من هذه النابتة الحقيرة التى تختلق للعرب الجاهليين الذين

يرأسهم أبوجهل مزايا وفضائل وتفتخر بها وتدعو إلى حمية الجاهلية ، ثم تصدف وتعرض عن الفضائل الحقيقية التى جاء بها محمد رسول الله عليـــه صلاة الله .
وهؤلاء ادعياء القومية العربية يتنكرون للشريعة الاسلامية والملة الحنيفية ولسيرة أعظم مصلح وأكرم معلم وجد فى تاريخ البشر ويتركون عروبته ودعوته الطاهرة الطيبة المباركة ويدعون إلى عروبة ابىجهل العجمية الضالة المرذولة ويستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير بل يستبدلون السعادة الكبرى و يبيعونها بالشقاء الأبدى ، ألا ساء مايحكمون ، ولذلك أهبطهم الله من سماء العزة والكرامة الى حضيض الذلة و الندامة ولم يصلح لهم عملا ولا بلغهم أملا ، فهم على كثرتهم أذلاء ، وصدق الله العظيم الـــذى يقول فى سورة المجادلة (ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين : ٢٠)

ثم قال تعالى : (وهو الذى أنشا جنات معروشات وغير معروشات ،) والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره اذا أثمرو آتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين :١٤٢ (ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين : ١٤٣) ثمانية أزواج ، من الضان اثنين و من المعز اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الانثيين ، أما اشتملت عليـــه ارحام الانثيين ، نبئونى بعلم ان كنتم صادقين : ١٤٤) ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الانثيين ، أما اشتملت عليه ارحام الانثيين ، أم كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، ان الله لايهدى القوم الظالمين : ١٤٥)

المعنى العام

قوله تعالى: (وهو الذى أنشأ جنات) الخ. فيه رد على المشركين الذين يأكلون خير الله ويعبدون غير الله ويزيدون على ذلك القول فى دين الله بلا علم فيحلون الحرام ويحرمون الحلال، وكل ذلك ضلال. هو أى الله الـــذى خلق جنات من الأشجار المختلفة الأنواع، بعضها يعرش، أى تقام له أعمـــدة وخشب كالسقف يمتد عليه كالكرم الذى يحتـــاج الى ذلك، وغير معروشات، كالكرم الذى لا يحتاج الى عريش وسائر الأشجـــار التى تقوم على ساق. وخلق النخل، وهو من أهم الأشجار وأكثرها نفعا للانسان. وخلق الزرع، وهو كل نبات له حب يقتات به، مختلفـا أكله، أى يختلف فى طعمه كل نوع منه لـه طعم خاص به، لأن الانسان يحب التنقل ولا يصبر على طعام واحـــد. وخلق الزيتون والرمان متشابها فى الألوان والحجوم والأشكال، وغير متشابه فى الطعم والخواص وسائر المنافع. كلوا من ثمره اذا أثمر، الأمر هنا للاباحة والامتنان وقيل لبيان أن ما يؤكل قبل الحصاد والجنى جائز لا يطالب المالك بزكاتـــه، والأحوط أن يعتبر بالخرص، إلا اذا كان فى وقت أكله يتصدق بما لا يقل عن العشر. وآتوا حقه يوم حصاده، قال ابن عباس وأكثر السلف: المراد بـــه، الزكاة المفروضة، وقيل ما يسقط من السنبل يترك للفقراء، وقيل اطعام المساكين يوم الحصاد والجذاذ. ولا تسرفوا فى الأكل، فان الاسراف فيه ضرره عظيم. وخلق من الانعام حمولة، أى ما يحمل عليـــه، كالابل والبقر التى تطيق الحمل، وفرشا، وهو الحيران والعجاجيل التى لا تقـــدر على الحمل والغنم. كلوا مما رزقكم الله. أمر اباحة وامتنان كما تقدم، ولا تتبعوا خطوات الشيطان فى التحليل

والتحريم من عند أنفسكم وفى البطر والطغيان وعدم شكر الله وفى اهمال المحافظة على ما خلق الله من الغذاء ، فقد رأيت الرعاة فى بادية الجزائر يرمى بعضهم بعضا بالكمأة بدل الحجارة . وهذا من اتباع خطوات الشيطان ومن الجهل والهمجية النافية للمروءة والانسانية . فان الكمأة تباع فى المانيا مثلا بثمن اللحم وتعد بدلا منه . ولقد جلست للغداء ذات يوم فى مطعم بمدينة برلين أعادها الله لسابق عهدها بتوحيد الشعب الالمانى على أساس العدل والانصاف ، جلست للغداء ودعوت بطعام يتضمن الكمأة ، فلما جاء الغلام بالطعام قلت له مستنكرا لا أرى فى هذا الطعام لحما فقال لى إن فيه الكمأة.ولا يجمع بين اللحم والكمأة فى طعام واحد . وحدثنى شاهد عيان ، أنه شاهد التلاميذ فى القسم الداخلى فى مدرسة مغربية يتضاربون بالخبز أثناء الأكل . فيالله للعجب من جهلهم وكفرهم لنعم الله فماذا تعلموا فى المدارس اذا لن يعرفوا أدب الأكل ووجوب المحافظة على الطعام الذى هو قوام الحياة للبشر والحيوان . وأظن ان الأميين الذين لم يدخلوا المدارس أفضل من هؤلاء ، لأنهم يحترمون الغذاء حتى ليكادون يقدسونه فاذا رأوا مثلا قطعة خبز ساقطة على الأرض بادروا الى رفعها وقبلوها وخافوا شديدا من عقاب الله . وقد اتفق الأدب المحمدى والأدب العالمى على وجوب المحافظة على كل ما فيه غذاء للانسان . فعن جابر قال ، سمعت النبي ﷺ يقول ، ان الشيطان يحضر أحدكم عند كل شىء من شأنه حتى يحضره عند طعامه ، فاذا سقطت من أحدكم اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان ، فاذا فرغ فليلعق أصابعه ، فانه لا يدرى فى أى طعامه البركة . رواه مسلم . وعنه أيضا ، أن النبي ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة ، وقال ، انكم لا تدرون فى أية البركة

رواه مسلم . فمن لا يحترم الطعام ولا يحافظ عليه هو بحق عدو للانسانيـــة .
ومن دواعى الأسف ان هذا الخلق ، وهو احترام الطعام المأخوذ من قوله
تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) لا يوجد الا عند الأوربيين ، فانهم اذا
أكلوا فى اناء لا يضعون فيه من الطعام إلا على قدر ما يأكلون ويتركونه
نظيفا ، بخلاف الذين يدعون الاسلام فانهم يضعون لثلاثة من الآكلين مثلا ما
يشبع عشرة ، فيأكلون بعضه ويتركون بعضه الآخر مخلوطا بالعظام التى أكلوا
لحمها ، فاما أن يقدموا الفضلة لمن يحتقرونه فيأكلها على مضض مضطرا الى
أكلها ، واما ان يتركوها الى أن تبقى فى المزابل . فان قلت ، ألم يكن النبي ﷺ
وأصحابه يستفضلون ، قلت بلى ، ولكن النبي ﷺ علمهم أن يأكلوا مما يليهم وألا
يأكلوا من رأس الثريد ، وهو وسط القصعة ، بل كانوا يأكلون من أطرافه
ويبقى مالم يأكلوه نظيفا . وقوله تعالى : (انه لكم عدو مبين) ، هو كقوله تعالى
فى سورة فاطر (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا
من أصحاب السعير) قوله تعالى : (ثمانية أزواج) ، أى ثمانية أصناف خلقها الله
تعالى لعباده ، من الضأن اثنين ، وهما الكبش والنعجة ، ومن المعز اثنين وهما
التيس والمعز . قل يا محمد ، أحرم الله الذكرين من الغنم ، وهما الكبش والتيس ،
أم حرم الأنثيين ، وهما النعجة والعنز ، أم حرم ما ضمته ارحام الأنثيين ، وهو
لا يخلوا أن يكون ذكورا او اناثـا ، فان قلتم انه حرم الذكرين وجب تحريم
جميع الذكور ، وإن قلتم أنه حرم الأنثيين وجب تحريم جميع الاناث وان قلتم
انه حرم ما فى بطونهما وجب تحريم الذكور والاناث جميعا ، لأن بطونهما تشتمل
عليها كلها . وقوله تعالى : (نبئونى بعلم إن كنتم صادقين) ، أى أقيموا البرهان
على تحريم ما زعمتم انه حرام ، فان الدعوى بلا حجة باطلة .

والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات ابناؤهـا أدعيـاء

وخلق من الابل اثنين ، وهما الجمل والناقة ، ومن البقر اثنين ، وهما الثور والبقرة . ويقال فى الابل والبقر ما قيل فى الضأن والمعز من المناظرة المفحمة التى أخرصت ألسن المشركين وألقمتهم الأحجار وكشفت لهم فساد دينهم وأنه مبنى على غير أساس من العقل والعلم . وقوله تعالى : (أم كنتم شهداء) ، إلى توبيخ لهم والزام لتناقضهم ، لأن التحليل والتحريم لا يكونـان إلا من الله ولا سبيل الى معرفتهما إلا بطريق الوحى ، وهم ينكرونه ولا يصدقون به ، فمن أين جاءهم ذلك التشريع الباطل . ومعنى شهداء ، حاضرين . و وصاكم ، أمركم . ولما تبين كذبهم قال تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) الخ . وكل كاذب ظالم ، ولكن أظلم الظالمين هو الذى يكذب على الله فيحرم بلا دليل ويحل بلا دليل .

قال الخازن : ويدخل فى هذا الوعيد كل من كان على طريقتهم أو ابتدع شيئا لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك الى الله تعـالى : لأن اللفظ عام فلا وجه للتخصيص ، فلكل من أدخل فى دين الله ما ليس فيه فهو داخل فى هذا الوعيد . (ان الله لايهـدى القوم الظـالمين) يعنى : ان الله لا يرشد ولا يوفق من كذب على الله وأضاف اليه ما لم يشرعه لعباده .

ثم قال تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أفسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم : ١٤٦)

المعنى العام

قوله تعالى : (قل لا أجد فيما أوحى الى) الخ . الطاعم : الآكل . والميتة ، ما مات من الحيوان حتف أنفه بلا ذكاة . والدم المسفوح ، دم المذبح والجروح ،

وكل ما أسيل بفصد او طعن. ولحم الخنزير رجس، أى نجس وخبيث، خلقه الله كذلك لا يطهر ابدا. (وما أهل لغير الله به)، ما ذبح لغير الله كيفما كان، ولو ملكا او نبيا او صالحا أو قبره أو أثرا من آثاره، وتقدم الكلام على ذلك. وظاهر الآية: أنه لا يحرم من الحيوان الا ما نصت عليه الآية، وهو هذه الأربعة، وفى ذلك اشكال، اذ لا شك أن النبى ﷺ حرم غير ذلك. قال الخازن: ولهذا اختلف العلماء فى حكم هذه الآية، فذهب بعضهم الى ظاهرها، وانه لا يحرم شئ من سائر المطعومات والحيوان الا ما ذكر فى هذه الآية. يروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير، وهو ظاهر مذهب مالك واحتجوا على ذلك بأن هذه الآية محكمة، لأنها خبر، والخبر لا يدخله النسخ. واحتجوا بأن هذه الآية: وان كانت مكية، لكن يعضدها آية مدنية، وهى قوله تعالى فى سورة البقرة: (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) وكلمة انما تفيد الحصر، فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية فى الحكم. وذهب جمهور العلماء الى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الأشياء المنصوص عليها فى هذه الآية، فإن المحرم بنص الكتاب، هو ما ذكر فى هذه الآية. وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها، منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع، ومخلب من الطير. عن المقدام بن معديكرب قال قال: رسول الله ﷺ: ألا عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهو متكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حراما حرمناه، وان ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله تعالى. أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب. ولأبى داؤد قال قال رسول الله ﷺ: ألا

انى أوتيت الكتاب ومثله معه . ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيـه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة معاهد الا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه . عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا ، فبعث الله نبيه ﷺ وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو معفو ، وتلا (قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) ، الآية : اخرجه أبوداؤد وروى مسلم عن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ عن كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير . وروى مسلم أيضا عن أبى هريرة أن النبى ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية . وروى البخارى ومسلم عن جابر أن النبى ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهليـة وأذن فى الخيـل . ثم قال الخازن : والأصل فى ذلك عند الشافعى أن كل ما لم يرد فيه نص بتحريم أو تحليل ، فما كان أمر الشرع بقتله كما ورد فى الصحيح ، خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم هى الحية والعقرب والفارة والحدأة والكلب العقور . وعن سعد ابن أبى وقاص ان النبى ﷺ أمر بقتل الوزغ . أخرجه البخارى ومسلم ، وسماه فويسقا . وعن ابن عباس قال : نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب ، النملة والنحلة والهدهد والصرد . أخرجه أبوداؤد . فهذا كله حرام لا يحل أكله ، وما سوى ذلك فالمرجع فيه الى الأغلب من عادة العرب ، فما يستطيبه الأغلب منهم فهو حلال ، وما يستخبثه الأغلب منهم ولا يأكلونه فهو حرام ، لأن الله خاطبهم

بقوله ، أحل لكم الطيبات ، فيما استطابوه فهو حلال ، فهذا تقرير ما يحل ويحرم من المطعومات .

قال تقي الدين : معاذ الله أن تكون اذواق العرب أو أكثرهم ميزانا ومعيارا للتحليل والتحريم فى دين الله ، بل كل ما لم يرد الكتاب أو السنة بتحريمه من الحيوان فهو حلال . وكيف تكون اذواق العرب مقياسا للتحليل والتحريم ، وهى تختلف فى القبيلة الواحدة والبلد الواحد . والنبى ﷺ نفسه عاف أكل الضب وكرهه بطبيعته ، لأنه لم يكن بأرض قومه ولم يحرمه . فلم يجعل النبى ﷺ ذوقه وطبعه وعادته مقياسا للتحليل والتحريم ، فكيف يجعل طبع غيره مقياسا لذلك . وهذا أصل غير صحيح بنى عليه الشافعية مسائلهم . فلذلك كثر اختلافهم فى أنواع الحيوان . ولم يتفقوا فى أكثر ذلك . ومن يقرأ كتاب حياة الحيوان للدميرى يجد من ذلك العجب العجاب . وهذا ان ثبت عن الشافعي ، فهو رأى لا حجة فيه . فروى صالح بن محمد العمرى الفلانى فى كتابه ، ايقاظ همم أولى الأبصار ، للاقتداء بسيد المهاجرين و الأنصار ، بسنده المتصل الى الربيع بن سليمان قال : سمعت الشافعي - و سأله رجل عن مسألة - فقال يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال كذا وكذا ، فقال له السائل : يا أبا عبد الله أتقول بهذا ؟ فارتعد الشافعي واصفر وحال لونه ، وقال ويحك ، وأى أرض تقلنى ؟ وأى سماء تظلنى ؟ اذا رويت لرسول الله ﷺ شيئا ولم أقل به ؟ نعم على الرأس والعين . قال سمعت الشافعي يقول : ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه . فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قاله رسول الله ﷺ ، وهو قولى ، قال ، وجعل يردد هذا الكلام .

وعن أبي ثعلبة الخشني عن النبي ﷺ قال : إن الله فرض فرائض فلا تعتدوها ، وحد حدودا فلا تقربوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها . قال النوى فى الأربعين : حديث حسن رواه الدارقطنى وغيره ، قال ابن رجب فى جامع العلوم والحكم : وقد روى معنى هذا الحديث مرفوعا من وجوه أخر، خرجه البزار فى مسنده والحاكم من حديث أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال : ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فان الله لم يكن لينس شيئا ، ثم تلا هذه الآية : (وما كان ربك نسيا) وقال الحاكم صحيح الإسناد ، وقال البزار إسناده صالح . وقد خرجه الطبرانى والدارقطنى من وجه آخر عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ بمثل حديث أبي ثعلبة . وخرجه الترمذى وابن ماجه من رواية سيف بن هارون عن سليمان التيمى عن أبي عثمان عن سلمان قال : سئل رسول الله ﷺ ، عن السمن والجبن والفرا ، فقال الحلال ما أحل الله فى كتابه ، والحرام ما حرم الله فى كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه . وأخرج أبوداود عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا ، فبعث الله نبيه ﷺ وأنزل كتابه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحل فهوحلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، ثم تلا هذه الآية ، (قل لا أ د فيما أوحى الى محرما) .

ثم قال الخازن : وأما الجواب عن هذه الآية الكريمة فمن وجوه ، أحدها أن يكون المعنى ، لا أجد محرما مما كال أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وغيرها الا ما أوحى الى فى هذه الآية . الوجه الثانى أن يكون المراد

وقت نزول هذه الآية ، لم يكن محرما غير ما ذكر ونص عليه فى هذه الآية ، ثم حرم بعد نزولها أشياء أخر. الوجه الثالث ، يحتمل أن هذا اللفظ العام خصص بدليل آخر ، وهو ما ورد فى السنة. قال تقى الدين : وأنا أختار الوجه الثانى. وقد فهمته واخترته قبل أن أطلع عليه فى هذا الكتاب ، وكنت أظن انى لم أسبق إليه. وبيان ذلك أن الفعل المضارع اذا دخلت عليه (لا) النافية تعينه للحال. واذا علمنا أن هذه السورة مكية اتضح لنا أنه لم يكن فى ذلك الوقت الذى نزلت فيه السورة شئ محرم من الحيوان وما يؤخذ منه إلا هذه الأربعة. والمقصود بهذا الرد على أولئك المشركين الذين حرموا تلك الأنعام افتراء على الله فلا يمنع ذلك أن تحرم بعد ذلك أنواع أخرى من الحيوان كسباع الوحش وسباع الطير.

لما بين الله سبحانه وتعالى تلك المحرمات رخص فيها للمضطر الذى لا يجد ما يأكل غيرها اذا لم يكن باغيا بأن يأكل ذلك شهوة ، ولا عاديا ، أى متجاوزا للحد بأن يأكله بعد وجود القوت الحلال ، فان الله غفور ، يغفر له أكله. ورحيم به اذ لم يتركه يموت جوعا.

ثم قال تعالى : (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون : ١٤٨)

المفردات

الحوايا جمع حاوية ، أو حاوياء ، أو حوية. فالأول على وزن ضاربة. والثانى على وزن قاصعاء. والثالث : على وزن سفينة ، وهى الأمعاء ، سميت بذلك لأنها تحوت ، أى استدارت .ا

أخبر سبحانه أنه حرم على اليهود خاصة كل ذى ظفر . اختلفت عبارات المفسرين فى تفسير الظفر . قالوا : هو ما لم يكن مشقوق الأصابع ، كالبعير والنعامة والإوزة . وقال بعضهم : هو كل ذى مخلب من الطير وكل ذى حافر من الدواب . وسمى الحافر ظفرا على الاستعارة . قوله تعالى : ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما . فسرت الشحوم المحرمة هنا بشحم الشرب والكلايتين ، لأنـه لا يتصل بعظم . واستثنى من ذلك ما حملت ظهورهما ، أى ما اتصل بها من الشحم . قالوا ومن ذلك شحم الألية ، لأنه متصل بأسفل عظم الظهر . أو الحوايا ، والمراد بها المباعر ، واحدها ، مبعر ، وهو مصير يجتمع فيه البعر ويكون فيه شحم كثير اذا كان الحيوان سمينا . أو ما اختلط بعظم ، وهو الشحم المختلط بالعظام ، كشحم العين والرأس . وقوله تعالى : (ذلك جزيناهم ببغيهم) . يعنى ذلك التضييق ، إنما وقع بسبب بغيهم ، أى ظلمهم لأنفسهم بمخالفتهم أمر الله . (وإنا لصادقون) ، فيما أخبرنا به وعادلون فى جزائنا لهم . يوضح ذلك قوله تعالى فى سورة النساء (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما : ١٦١ ، ١٦٢) وأخرج البخارى ومسلم عن ابن عباس قال : بلغ عمر بن الخطاب أن سمرة باع خمرا ، فقال : قاتل الله سمرة ، ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال : لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها . وقوله (جملوها) ، أى أذابوا الشحوم واستخرجوا منها الدهن وباعوه . ومن هنا نعلم أن كلما لا يجوز للمسلم أن يأكله لا يجوز له أن يبيعه كالخمر والميتة والخنزير ، لأن أكل ثمنه كأكله . وفى رواية للجماعة عن جابر بن عبد الله قال : سمعت

رسول الله ﷺ يقول عام الفتح ، ان الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام ، فقيل يا رسول الله : أرأيت شحوم الميتة فانها يدهن بها الجلود ويطلى بها السفن ويستصبح بها الناس ، فقال ، لا ، هو حرام ، ثم قال رسول الله ﷺ قاتل الله اليهود ، ان الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه . وروى أحمد وأبوداود عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ قاعدا فى المسجد مستقبلا الحجر فنظر إلى السماء فضحك ، قال : لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها ، وان الله اذا حرم على قوم أكل شئ حرم عليهم ثمنه .

ثم قال تعالى : (فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين : ١٤٨)

المعنى العام

يقول سبحانه : فان كذبك المخالفون لك من أهل الكتاب والمشركين ، فقل لهم ، ربكم ذو رحمة واسعة لا يعجل العقاب لمن كذب رسله ، ولكنه يمهل ، ولا يهمل ، ولا يرد عذابه عن القوم المجرمين متى حان وقته . ومثل ذلك قوله تعالى فى آخر هذه السورة (ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم)

ثم قال تعالى : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن انتم إلا تخرصون : ١٤٩) (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين : ١٥٠) (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فان شهدوا فلا تشهد معهم ولاتتبع أهواء الذين

كذبوا بآياتنا والذين لايؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون : ١٥١)

المعنى العام

هذا إخبار من الله تعالى بما سيقوله المشركون فى محاجتهم ومجادلتهم للنبى ﷺ ، فإنهم يحتجون بقدر الله ومشيئته الكونية على شرعه وأمره ، وهذه مغالطة وتكذيب تحت ستار الجدال والمراوغة . وجواب هذه الشبهة ، أن الله أراد أن يكونوا مشركين وعلم بذلك قبل أن يخلقهم أنهم سيختارون الباطل ويتركون الحق . ومقتضى حكمته ، أنه لا يجبر أحدا على طاعة ولا على معصية ، بل يعطيه الاختيار ويأمره بالطاعة وينهاه عن المعصية ، فإن اختار الطاعة لطف به وأعانه ، وإن اختار المعصية واتبع هواه خذله ووكله الى نفسه . ومثل هذا قوله تعالى فى سورة الزخرف : (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون : ٢١) فسمى الله احتجاجهم بالمشيئة الكونية تكذيبا ، لأن الخرص هو التكذيب . وبيان ذلك أن المشرك والعاصى حين يعزم على الشرك والمعصية لا يكون عالما بمشيئة الله لذلك الشرك أو تلك المعصية ، وإنما يكون شاعرا بالاختيار ومدفوعا بالهوى ، وإنما يعلم أن الله شاء ذلك بعد وقوعه ، فاحتجاجه بمشيئة الله التى كان يجهلها مغالطة ومراوغة ، وذلك عين التكذيب ، فشركهم بالله وتحريمهم لما أحل الله ناشئان عن اتباعهم للهوى ، وعلى ذلك يذيقهم الله بأسه كما أذاق المكذبين من قبلهم عذابه . ولذلك قال تعالى (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا) . ثم قال تعالى: (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) ، أى قل لهم يا محمد هل عندكم علم جاءكم من الأنبياء السابقين أو برهان عقلى على شرككم وتحريمكم لما أحل الله فتظهروه لنا لتقيموا به حجتكم الداحضة ودعواكم

الباطلة ؟ كلا . إن تتبعون إلا الظن والأوهام وما أنتم إلا تكـذبون . ثم أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم . فلله الحجة البالغة الكاملة ، فلو شاء هدايتكم بإجباركم على اتباع الحق وسلب الاختيار منكم لهداكم أجمعين ، ولم يستطع احد منكم الخروج عما أراده له . ثم قال تعالى مخاطبا نبيه ، (قل هلم) ، أى هاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هـذا الذى تحرمونـه من الحرث والأنعام . ثم قال تعالى مخاطبا رسوله ، فان شهد شهودهم بذلك ، فانما شهدوا زورا واتبعوا أهواءهم فلا تشهد أنت معهم ولا تتبع أهواءهم فانهم هم المكذبون بآيات الله الذين لا يؤمنون بالجزاء الأخروى ، وهم يشركون بالله غيره لسفاهتهم وجهلهم . ثم قال تعالى : (قل تعالوا اتل مـا حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئـا وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها ومـا بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون : ١٥٢)

المعنى العام

أمر الله نبيه أن يدعو أولئك المشركين الـذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله أن يأتوه ليقرأ عليهم ما حرمه الله عليهم يقينا بوحى لا يـأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . الأول الشرك بالله . وقوله تعالى : (ألا تشركوا) ، مؤول . قال ابن كثير : وكـأن فى الكلام محذوفا دل عليه السياق ، وتقديره ، وأوصاكم ألا تشركوا به شيئا ، لهذا قال فى آخر الآية ، (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون :)

وكما قال الشاعر :

حج وأوصى بسليمى الأعبدا   أن لا ترى ولا تكلم أحدا

ولا يزل شرابها مبردا

وتقول العرب : أمرتك أن لا تقوم . وقوله تعالى : (وبالوالدين إحسانا) ، أى حرم عليكم عقوق الوالدين وأوصاكم أن تحسنوا إليهما إحسانا كثيرا . وحرم عليكم قتل أولادكم من أجل الفقر الذى أنتم فيه ، فان الله هو الذى يرزقكم ويرزقهم ، إن قتلهم ذنب عظيم . وحرم عليكم فعل المعاصى ما ظهر منها بحيث يراه الناس وما خفى بحيث لايراه الناس . وكانت العرب ، لا تستقبح الزنا إلا اذا كان ظاهرا ، وتتساهل فيه اذا كان سرا ، فأخبرهم الله ببطلان ما كانوا عليه وأنه حرام سرا وعلانية . وحرم عليهم قتل النفس بغير حق ، وهو الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه ، المفارق للجماعة . ذلكم المذكور من المعاصى وصاكم بتركه لتعقلوا عنه أوامره ونواهيه وتطيعوه لتهتدوا وتسعدوا .

الأحاديث المناسبة لتفسير هذه الآية

الأول : عن ابن مسعود قال : من أراد أن ينظر الى وصية رسول الله ﷺ التى عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات ، (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به - الى قوله - لعلكم تتقون) . رواه الترمذى وحسنه الثانى : أخرج الترمذى وحسنه عن عبادة بن الصامت قال ، قال رسول الله ﷺ : أيكم يبايعنى على ثلاث ثم تلا رسول الله ﷺ (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) حتى فرغ من الآيات ، فمن وفى فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبة ومن أخر الى الآخرة ، فأمره الى الله ، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . الثالث : وفى الصحيحين عن أبى ذر قال قال رسول الله ﷺ أتانى جبريل فبشرنى ، انه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة . قلت وإن زنى وإن سرق قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت وإن زنى وإن سرق ، قال :

وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن شرب الخمر . الرابع : أخرج مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة .

قال تقى الدين : وقد قرن الله توحيده ببر الوالدين فى غير ما آية من كتابه ، قال تعالى فى سورة النساء (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا : ٣٧) ومثل ذلك فى سورة البقرة والعنكبوت ولقمان والاسراء والاحقاف . ومن المعلوم أن توحيد الله هو أفضل ما عبد الله به . فلما قرن الله بر الوالدين به علمنا أنه يليه فى المنزلة . وبيان ذلك أن نعمة الايجاد والامداد هى من الله وحده فهو الخالق البارئ المصور ، فشكره أوجب الواجبات وأعظم الفرائض والقربات . ولما كان الوالدان هما سبب وجود الانسان كان شكرهما بعد توحيد الله أفضل الأعمال وأعظم الواجبات . ولم نر دينا يبالغ فى الحث على بر الولدين مثل دين الاسلام ، وذلك مما فضل الله به المسلمين على غيرهم حتى ان الرجل من ذوى المراتب العالية ، وقد بلغ سن الشيخوخة يطيع والديه ويخدمهما بنفسه ويتذلل لهما كما أمره الله تعالى بقوله (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة . الاسراء : ٢٥) ومن سوء حظ المسلمين وشقائهم إعراضهم عن كتاب الله وسنة رسوله ، وتسليمهم أولادهم الى مدارس فارغة من الآداب الاسلامية والأخلاق العالية ، فيتخرج فيها اولادهم فى غاية العقوق والاحتقار لوالديهم والتكبر عليهم . ولقد رأيت امرأة فقيرة تخدم الناس فى بيوتهم بغسل الثياب وغيرها ، اخبرتنى أنها تزوجت برجل فرزقت غلاما منه ولم يلبث أن طلقها ولم ينفق عليها ولا على ولدها شيئا ، لأنه كان فقيرا معدما ، فلم تزل

تكدح لتربية ذلك الغلام والنفقة عليه وأدخلته المدرسة ، وهى فى حاجة الى خدمته وتحملت المشاق فى تحصيل النفقة لتهىء له كل ما يحتاج اليه من طعام وثياب وكتب وأدوات الكتابة ، فلما بلغ سن التمييز أخذ يشتمها ، ولما بلغ الثالثة عشرة صار يضربها ، وهذا جزاء من يسلم أولاده لمثل تلك المدارس بدل أن يعلمه كتاب الله وسنة رسوله .

الخامس : أخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ أى العمل أفضل قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى قال ، بر الوالدين ، قلت ثم أى قال ، الجهاد فى سبيل الله ، قال ابن مسعود ، حدثنى بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادنى . السادس : اخرج البخارى ومسلم من حديث ابن مسعود أنه سأل رسول الله ﷺ أى الذنب أعظم ، قال ، أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت ثم أى قال ، أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت ثم أى قال ، أن تزانى حليلة جارك ، ثم تلا رسول الله ﷺ (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون :) ، السابع : أخرج البخارى ومسلم عن سعد بن عبادة أنه قال ، لو رأيت مع إمرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : أتعجبون من غيرة سعد ، فو الله لأنا أغير من سعد والله أغير منى ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

الثامن : أخرج البخارى و مسلم عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله (ﷺ) لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا باحدى ثلاث ، الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه ، المفارق للجماعة ،

التاسع : قال ابن كثير : وقد جاء النهى والزجر والوعيد فى قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب. فروى البخارى عن ابن عمر عن النبى ﷺ مرفوعا. من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وان ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما.

(فائدة) قال غير واحد من المفسرين فى قوله تعالى هنا :(ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم). وفى سورة الاسراء، (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق، نحن نرزقهم وإياكم). فقدم الكاف على الهاء فى سورة الأنعام ولم يذكر الخشية. وفى سورة الاسراء ذكر الخشية وقدم الهاء على الكاف. فمعنى آيـة الأنعام موجه إلى من كان لهم أولاد فـأرادوا قتلهم، لأنهم فقراء، وظنوا أن قتلهم ينقذهم من الاملاق، وهو الفقر، أو يقلل من فقرهم والخطاب فى آية الاسراء موجه الى الوالدين الذين ليسوا فقراء ولكنهم يقتلون أولادهم خوفا من الفقر الذى يتوقعونه بسبب أولئك الأولاد إذا لم يقتلوهم، فلذلك قال فى الآية الأولى، نحن نرزقكم الآن ونرزقهم أيضا. فقتلهم لا يـدفع عنكم فقرا ولا يوفر لكم رزقا. وقال فى الآية الأخرى، نحن نرزقهم كما رزقناكم فلا تقتلوهم خوف الفقر فان رزقهم مضمون كرزقكم، والله أعلم.

المعنى العام

ثم قال تعالى :(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى احسن حتى يبلغ اشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها. واذا قلتم فاعدلوا ولوكان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون : ١٥٣)

قوله تعالى، (ولا تقربوا مال اليتيم)، يعنى لا تتصرف فيه بأى نوع من انواع التصرف إلا بقصد الاصلاح والحفظ والتوفير لابقصد التحيل على أكله يوضح ذلك آية

النساء ٧ (وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا، ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا :٧) فيجب على وصى اليتيم وولى أمره أن يحافظ على ماله كما يحافظ على مـــال أولاده ويفعل معه ما يحب أن يفعل الناس مع أولاده لو مات وتركهم ضعافا. قال تعالى فى سورة النساء (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا. خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا : ١٠) ومن فضائل هذا الكتاب الكريم وهذا الدين القيم انه بالغ كل المبالغة فى حث الناس على العناية باليتيم ، وهو كل طفل أو طفلة فقد أباه وهو دون البلوغ ، فلم يكتف القرآن بالنهى عن أكل مـــال اليتيم ولا بالأمر بالمحافظة على ماله حتى أمر بإكرامه. قال تعـــالى فى سورة الفجر بعد ما ذكر حال الانسان الكافر والفاجر الذى تبطره النعمة ويؤسه الفقر ، اذ حكى الله عنه قوله (فأما الأنسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) قال تعالى ردا عليه وزجرا له (كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين) فلماذا أمر بإكرام اليتيم واكتفى بفرض الحض على طعـــام المسكين ، ولم يأمر بإكرامه ؟ الجواب ، لأن المسكين اذا كان بالغا ، والمسكينة اذا كانت بالغة يكفيهما الإطعام، وفى معناه الكسوة والإسكان وعلاج المريض وتعليم الجاهل، وهـذا هو الضمان الاجتماعى الذى فهمه عمر بن الخطاب من كتاب الله وسنة رسوله ، فأمر عماله بتطبيقه ، روى عنه ذلك الامام ابن حزم فى كتابه المحلى . أما قادة أوربا وأمريكا فلم يهتدوا الى الضمان الاجتماعى إلا فى هذا الزمان . أما اليتيم

فلا يكفيه ذلك ، بل يحتاج إلى العطف والحنان والتكريم ، فعسى ذلك أن يعوض له بعض ما فقده من حنان والده . فهذا هو السر فى الأمر بإكرام اليتيم . وإكرام اليتيم وإطعام المسكين على الوجه المتقدم هو المعيار الذى يوزن به تقدم الأمم ، فان كل أمة تبذل جهدها فى إكرام اليتيم وإطعام المسكين ، تكون مرزوقة رزقا واسعا ومنصورة على أعدائها لقول النبى ﷺ وإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم، رواه النسائى . وهذا أمر مشاهد فى كل زمان ومكان ، وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا . وكل أمة تضيع اليتيم والمسكين تكون مخذولة مقدورا عليها رزقها ذليلة خانعة شقية ، بأسها بينها ، والتوفيق بيد الله .

وقوله سبحانه : (حتى يبلغ أشده) ، معناه ، حتى يبلغ الحلم ويكون رشيدا كما نصت عليه آية النساء المتقدم ذكرها . وقوله تعالى : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) . الكيل يكون بالمد والصاع بملئه الى أن يعلوه المكيل من الحبوب وغيرها ثم يمسح . والميزان معروف . وإيفاء الكيل والوزن برهان على الأمانة وحب العدل والانصاف والنصح ، وهو من مكارم الأخلاق التى بها تسود الأمم وتعز وتسعد ، وبفقدها تفقد سيادتها فتستعبد وتذل وتشقى فى كل زمان ومكان ، سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا . واذا كانت كلمة لبيد :

الا كل شئ ما خلا الله باطل

أصدق كلمة قالها شاعر كما فى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : فان قول شوقى :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يلى كلمة لبيد فى الصدق . وقد أوعد الله الذين ينقصون الكيل والميزان بشدة العذاب فى الدنيا والآخرة فقال فى مفتتح السورة الثالثة والثمانين :٨٣) من كتابه العزيز (ويل للمطففين : الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون : ٢ ، ٣) (واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون : ٤ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم : ٥ ، ٦ يوم يقوم الناس لرب العالمين : ٧) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية ، وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال ، وفى كتاب الجامع لأبى عيسى الترمذى من حديث الحسين بن قيس أبى على الدحى عن عكرمة عن ابن عباس قال قال : رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان ، انكم وليتم أمرا هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم ، ثم قال لا نعرفه مرفوعا الا من حديث الحسين ، وهو ضعيف فى الحديث . وقد روى باسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا . قلت : وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره من حديث شريك عن الأعمش عن سالم بن أبى الجعد عن ابن عباس قال قال رسول ﷺ : انكم معشر الموالى قد بشركم الله بخصلتين بهما هلكت القرون المتقدمة ، المكيال والميزان .

وقوله تعالى :(لا نكلف نفسا إلا وسعها) رفع للجرح فى الكيل والميزان كما فى غيرهما فمتى عقد الكائل والوازن العزم على الايفاء واحتاطا فى ذلك وبذلا جهدهما فأخطأ ، وهما لايعلمان ، فلا إثم عليهما . ولما كنت فى قبيلة أيت اسحاق ، وأنا غلام ، رأيتهم يقترضون السكر وغيره من الموزونات ، بأن يأخذ أحدهم عصا ويربط فى طرفها عمامة ويضع القطعة التى يراد وزنها مصرورة فى طرف العمامة المتدلى ويحمل العصا على إصبعه ،فاذا استوى طرفاها سلم الموزون الى المقترض . ثم يؤدى له ذلك بالطريقة نفسها . ففى مثل

هذه الحال يجب على الوازن والكائل الاحتياط وبذل الجهد ولا حرج عليه بعد ذلك . ومن هذا الباب الكيل بالحفنة ، والوزن بالقبان ، وهو الميزان الكبير الذى توضع فيه مآت الارطال دفعة واحدة ، يحتاط الصادق الناصح ويغش الكاذب المخادع . وبهذا الايضاح تتبين الحكمة فى قوله تعالى : (لا نكلف نفسا إلا وسعها) .

وقوله تعالى : (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) . كقوله تعالى فى سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين : ١٣٦) أمر الله المسلمين أن يقولوا كلمة الحق وأن يشهدوا بالحق ولا تمنعهم من ذلك رغبة ولا رهبة . وهذا خلق آخر عظيم من مكارم الأخلاق التى لا تصلح جماعة بدونها ، وهو أخ شقيق لما تقدمه من إيفاء الكيل والميزان ، سواء أكان الكائل والوازن قابضا أو معطيا ، وهنا ايضا سواء أكان القول والشهادة يعودان على القائل بالنفع أم بالضرر ، يجب عليه أن لا يحيد عن الحق . فهذان الخلقان من الدعائم التى تبنى عليها سعادة الأمم والشعوب ، والعجب كل العجب أن أكثر المسلمين فى غفلة عن ذلك فنعوذ بالله من الخذلان . قوله تعالى : (وبعهد الله أوفوا) . تكرر الحث فى كتاب الله على الوفاء بالعهد والوعد بعبارات فى التوكيد أقصى الغايات . فمن ذلك قوله تعالى فى سورة الاسراء : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا : ٣٥) وقال تعالى فى سورة البقرة : (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون : ٢٧ ، ٢٨) وقال تعالى فى سورة الرعد (والذين ينقضون

عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار: ٢٦) وقال تعالى فى سورة مريم فى الثناء على اسماعيل (واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا : ٥٥، ٥٦) والآيات فى ذلك كثير تصريحة. وليعلم من لا يعلم أن الوفاء بالعهد والوعد فرض على كل مسلم، سواء أكان المعاهد والموعود مسلما أم غير مسلم. ومن نقض العهد أو أخلف الوعد فقد ارتكب كبيرة يذهب بها ثلث إيمانه. وقد تقدم الحديث المتفق على صحته مرفوعا. آية المنافق ثلاث، اذا حدث كذب، واذا وعد أخلف، واذا أوتمن خان. وفى الرواية التى انفرد بها مسلم، وان صلى وصام وزعم أنه مسلم. وهذا خلق ثالث يضاف إلى الخلقين المتقدمين. وما أكثر مكارم الأخلاق فى كتاب الله وسنة رسوله. فبالله عليكم هل يصدق عاقل أن أمة تدين بدين هذه أركانه وتلك دعائمه يستطيع الشقاء العاجل أو الآجل أن يدنو منها أو يحل بساحتها، اللهم لا ثم لا. فهذه تسعة أركان ذكرت متوالية فى هذا الموضع من كتاب الله جمعت الخير كله. لا جرم أن كل أمة كيفما كان لونها تتمسك بهذه الأركان وتعتقدها وتعمل بها لا بد أن تسود وتسعد فى عاجلها وآجلها، فلا نامت أعين الخائنين والمرتدين والمنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون كبر مقتا عند الله أن يقولوا ما لا يفعلون. وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله: (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون). فالإشارة بقوله ذلكم تعم الوصايا التسع المذكورة، فكل من حافظ عليها كان من المفلحين. وكل من أخل بها كان من الخاسرين. والتذكر، الاتعاظ والانتفاع بالتذكرة والعمل بما تضمنه.

ثم قال تعالى : (وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله : ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون : ١٥٤)

المعنى العام

عن ابن عباس قال فى الآية فى قوله تعالى : (ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) . وفى قوله : (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، ونحو هذا فى القرآن . قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة . وأخبرهم أنه انما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله . وروى أحمد والنسائى والحاكم ، وقال صحيح على شرطهما عن ابن مسعود قال : خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيما ، وخط عن يمينه وشماله ، ثم قال هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه . ثم قرأ : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) . وروى أحمد والترمذى والنسائى عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الابواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس : هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد الانسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه فانك إن تفتحه تلجه . فالصراط الاسلام ، والسوران حدود الله . والأبواب المفتحة محارم الله . وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله . والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم .

ومعنى الآية وأن هذا الذى قص عليكم صراطى ، أى طريقى المستقيم فاتبعوه

ولا تتبعوا الطرق المضلة من البدع والمحدثات ، فتخرجكم عن سبيل الله ، وسبيل الله واحــدة ، وسبل الضلال كثيرة . ذلكم المذكور وصاكم بــه لتجتنبوا ما نهيتم عنه من الشرك والبدع والمعاصى فتفلحوا وتسعدوا .

ثم قال تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شئ وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون : ١٥٥) (وهذا كتاب أنزلنــاه مبارك فاتبعوا واتقوا لعلكم ترحمون : ١٥٦) (أن تقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين : ١٥٧) أو تقولوا او أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون : ١٥٨)

المعنى العام

قوله تعالى : (ثم آتينا موسى الكتاب) من باب عطف الخبر على الخبر ، أى ثم أخبركم (انا آتينا موسى الكتاب) الخ . كقول الشاعر :

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم ساد من قبل ذلك جده

والمراد بـ (الكتاب) هنا التوراة . (تماما) أى إتماما لنعمة الله عليه بسبب إحسانه فى طاعة الله والدعوة الى سبيله . (وتفصيلا) ، أى بيانا مفصلا لكل شئ احتاج اليه من الأحكام والإرشاد . (وهدى ورحمة) له ولقومه ليتعظوا بذلك ويتيقنوا لقاء الله فى الدار الآخرة وجزاءه لهم . وقد اختلف المفسرون فى لفظ ، (الذى) ، أهو موصول حرفى ، أم موصول اسمى ، وهل هو بمعنى الجمع أو الإفراد ، فضربت عن ذلك صفحا ، لأنه ليس من غرضي فى هذا الكتاب الذى اهتم فيه بالوعظ

والارشاد فى الدرجة الأولى . ثم قال تعالى : (وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه) على محمد (مبارك) على كل من اتبعه وعمل بما فيه لا يبقى شئ من بركات الدنيا والآخرة إلا ناله . (فاتبعوه واتقوا) الله ولا تخالفوه لعلكم ترحمون رحمة تضمن لكم سعادة الدارين ، أنزلناه على محمد النبى العربى لئلا تقولوا أيها العرب معتذرين ، (انما أنزل الكتاب التوراة والانجيل على طائفتين من قبلنا) ، هم اليهود والنصارى ، وما كنا إلا غافلين عن دراستهم ، لأننا لا نعرف لغتهم ، ولا اتصال بيننا وبينهم يعرفنا ما عندهم من العلم . (أو تقولوا) ، لو أنزلت يا رب علينا الكتاب الذى أنزلته عليهم لكنا أكثر اهتداء منهم واتباعا لما أنزلت . ونظير ذلك فى كتاب الله قوله تعالى فى سورة القصص : (ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين : ٤٨) وقوله تعالى فى سورة فاطر (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا : ٤٣) استكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) ثم قال تعالى (فقد جاءكم بينة من ربكم) الخ . أى رسول منكم بكتاب عربى مبين تفهمونه ، وهو رحمة لكم اذا اتبعتموه يخرجكم من الظلمات الى النور ومن الضيق الى السعة ، ومن الخوف الى الأمن ، ومن الفقر الى الغنى ، ومن الشقاء الى السعادة الأبدية . فمن أظلم ممن كذب بآيات الله فلم ينتفع بها فى نفسه ولم يكفه ذلك حتى صدف الناس عن الايمان بها وصرفهم عن ذلك فهو أظلم الظالمين . ثم توعدهم تعالى بقوله : (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) ، وقد جزاهم الله سوء العذاب ولا يزال يجزيهم . فان كل أمة وصلها القرآن وعرفته وقامت عليها حجة الله ، ثم تركته وأعرضت عنه حل بها الهلاك وسلبها الله

نعمه وصب عليها النقم و ردت الى أسفل سافلين .

ثم قال تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ، يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ، قل انتظروا انا منتظرون : ١٥٩)

المعنى العام

قال البخارى فى تفسير هذه الآية بسنده الى أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا رآها الناس آمن من عليها فلذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل . ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملئكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور : ٢١١) وكقوله تعالى فى سورة الفجر : (وجاء ربك والملك صفا صفا : ٢٣) والسلف الصالح يؤمنون بمثل هذه الآيات ولا يتعرضون لها بتأويل ولا تعطيل مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة مخلوقاته . والمراد بآيات ربك هنا ، أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها فاذا ظهرت تلك الآيات يحق العذاب على الكافرين وينسد باب التوبة والايمان . والاستفهام هنا بمعنى النفى ، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملئكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك . وقوله تعالى : (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى ايمانها خيرا) . مر عليه أكثر المفسرين مرور الكرام باللغو خوفا على مذاهبهم فى العقيدة . فنسأل الله أن يحفظنا من أسر التمذهب والتقليد . والمعنى ، يوم يجئ بعض آيات ربك ، كطلوع الشمس من مغربها لا ينفع نفسا ايمان جديد لم يكن عندها من قبل ، ولا ايمان

والارشاد فى الدرجة الأولى. ثم قال تعالى: (وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه) على محمد (مبارك) على كل من اتبعه وعمل بما فيه لا يبقى شئ من بركات الدنيا والآخرة إلا ناله. (فاتبعوه واتقوا) الله ولا تخالفوه لعلكم ترحمون رحمة تضمن لكم سعادة الدارين، أنزلناه على محمد النبى العربى لئلا تقولوا أيها العرب معتذرين، (انما أنزل الكتاب التوراة والانجيل على طائفتين من قبلنا)، هم اليهود والنصارى، وما كنا إلا غافلين عن دراستهم، لأنا لا نعرف لغتهم، ولا اتصال بيننا وبينهم يعرفنا ما عندهم من العلم. (أو تقولوا)، لو أنزلت يا رب علينا الكتاب الذى أنزلته عليهم لكنا أكثر اهتداء منهم واتباعا لما أنزلت. ونظير ذلك فى كتاب الله قوله تعالى فى سورة القصص: (ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين: ٤٨) وقوله تعالى فى سورة فاطر (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا: ٤٣) استكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) ثم قال تعالى (فقد جاءكم بينة من ربكم) الخ. أى رسول منكم بكتاب عربى مبين تفهمونه، وهو رحمة لكم اذا اتبعتموه يخرجكم من الظلمات الى النور ومن الضيق الى السعة، ومن الخوف الى الأمن، ومن الفقر الى الغنى، ومن الشقاء الى السعادة الأبدية. فمن أظلم ممن كذب بآيات الله فلم ينتفع بها فى نفسه ولم يكفه ذلك حتى صدف الناس عن الايمان بها وصرفهم عن ذلك فهو أظلم الظالمين. ثم توعدهم تعالى بقوله: (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون)، وقد جزاهم الله سوء العذاب ولا يزال يجزيهم. فان كل أمة وصلها القرآن وعرفته وقامت عليها حجة الله، ثم تركته وأعرضت عنه حل بها الهلاك وسلبها الله

نعمه وصب عليها النقم و ردت الى أسفل سافلين .

ثم قال تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ، يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ، قل انتظروا انا منتظرون : ١٥٩)

المعنى العام

قال البخارى فى تفسير هذه الآية بسنده الى أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا رآها الناس آمن من عليها فلذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل . ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة البقرة (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملئكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور : ٢١١) وكقوله تعالى فى سورة الفجر : (وجاء ربك والملك صفا صفا : ٢٣) والسلف الصالح يؤمنون بمثل هذه الآيات ولا يتعرضون لها بتأويل ولا تعطيل مع تنزيه الله تعالى عن مشابهة مخلوقاته . والمراد بآيات ربك هنا ، أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها فاذا ظهرت تلك الآيات يحق العذاب على الكافرين وينسد باب التوبة والايمان . والاستفهام هنا بمعنى النفى ، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملئكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك . وقوله تعالى : (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى ايمانها خيرا) . مر عليه أكثر المفسرين مرور الكرام باللغو خوفا على مذاهبهم فى العقيدة . فنسأل الله أن يحفظنا من أسر التمذهب والتقليد . والمعنى ، يوم يجئ بعض آيات ربك ، كطلوع الشمس من مغربها لا ينفع نفسا ايمان جديد لم يكن عندها من قبل ، ولا ايمان

كان عندها من قبل ولم تكسب فيه خيرا ، أى لم تعمل أى عمل صالح ، بل اقتصرت على مجرد التصديق بزعمها ولم تقرنه بشئ من الأعمال . والعمل من الايمان . فقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول ﷺ الايمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى من الطريق ، والحياء شعبة من الايمان . وقوله تعالى : (قل انتظروا انا منتظرون) تهديد للشركين بعذاب الله الذى هو حال بهم لا محالة إن لم يؤمنوا بالله ورسوله وما جاء به . فالنبى ﷺ ينتظر نصر الله والقضاء على أعداء الاسلام ، وأعداء الاسلام ينتظرون حتفهم . وقد تحقق ذلك للمسلمين وللكافرين ، كل منهم أدرك ما وعده الله أو أوعده به .

ثم قال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ ، انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون : ١٦٠) من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون : ١٦١)

المعنى العام

قوله تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم) الخ ـ أى تفرقوا فيه (شيعا) أى فرقا . (لست منهم فى شئ) أى أنت برئ منهم براءة تامة . (انما أمرهم الى الله) ، أى حسابهم وعقابهم الى الله موكول ، وهو الذى يخبرهم بما كانوا يفعلون ويعاقبهم عليه . ولهذه الآية نظائر فى الكتاب العزيز منها قوله تعالى فى سورة الشورى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه : ١٤) فأخبر سبحانه وتعالى أن ما شرعه لأمة محمد من الدين هو عين ما شرعه للأمم السابقة بواسطة

رسلهم . فتوحيد الله واحـــد ، و تصديق جميع الرسل واحد ، وإقامة العـــدل والاحسان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونصر المظلوم ، والتعاون على البر ، والجهاد في سبيل الله ، والرحمة لخلق الله . فهذه الأصول لا يختلف فيها دين أي رسول مع دين غيره من الرسل ، ومن توحيد الله جعل الحكم له وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه . والايمان بالله ورسله يستلزم أنهم وحدهم المتوسطون بين الله وعباده في تبليغ الأحكام ، فلا شارع إلا الله ولا مبلغ إلا رسل الله ، وكذلك المجتهد لا يدعى أنه حكم بين الخصمين بما أنزل الله ، بل يقول كما قال عبد الله بن مسعود . أقول فيها برأيي ، فان كان صوابا فمن الله ، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريء منه . أما تقليد غير المعصوم والاستغناء بما نقل عنه من الأقاويل عن كتاب الله والاعتماد في الحكم والافتاء على ذلك ونسبة ذلك الى الله ورسوله ، فهو افتراء على الله وصد عن سبيلـــه وتبديل لدينه ، فنعوذ بالله من الخذلان . وهنا يحسن أن انقل من كلام الأئمة في رد التقليد والتمذهب والتعصب ما يكون قرة عين لطالب الحق وسخنة عين للمبتدعين الذين فرقوا دين الله وصدوا عن سبيل الله . وقبل أن أنقل هذه النبذة اليسيرة أحيل القارئ على مطالعة كتاب اعلام الموقعين عن رب العالمين للامام الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية ، وكتاب جامع بيان العلم وفضله للامام الحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري . وكتاب ايقاظ همم أولى الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار ، وتحذيرهم عن الابتداع الشائع في القرى والأمصار ، من تقليد المذاهب مع الحمية والعصبية بين فقهاء الأعصار . للامام المحقق ، بقية السلف ، صالح بن محمد بن نوح الفلاني المغربي . وكل هذه الكتب مطبوعـــة في مصر . وهناك كتب أخرى تشتمل على مباحث قيمة في هذا المعنى ، لكن الكتب

الثلاثة المتقدمة الذكر تغنى عنها . قال الفلانى رحمه الله بعد ما ذكر الآيات الدالة على وجوب اتباع الكتاب والسنة فى كل زمان ومكان وترك الاقتداء والقضاء بالتقليد ، وما جاء فى ذلك من الوعيد الشديد قال ما نصه فى ص ٦ « وأما الأحاديث الدالة على وجوب العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فكثيرة » فنى الصحيحين من حديث ابن عباس « ان هلال بن أمية قذف امرأته بشريك ابن سحماء عند النبى ﷺ ، فذكر حديث اللعان وقول النبى ﷺ ، أبصروها ، فإن جاءت به أكحل العينين ، سابغ الإليتين ، خداج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء ، وإن جاءت به كذا وكذا فهو لهلال بن أمية ، فجاءت به على النعت المكروه . فقال النبى ﷺ لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن . يريد والله أعلم بكتاب الله ، قوله تعالى : (ويدرأ عنها العذاب ان تشهد أربع شهادات بالله) ويريد بالشأن والله أعلم أنه كان يحدها لمشابهة ولدها بالذى رميت به ولكن كتاب الله فصل الحكومة وأسقط كل قول وراءه ، ولم يبق للاجتهاد بعده موضع .

قال محمد تقى الدين . اذا كان رسول الله ﷺ ، وهو سيد العلماء وإمام الأئمة ، وهو معصوم عن الخطأ أحجم عن الحكم برأيه احتراما للنص القرآنى عملا بقوله تعالى فى هذه السورة : (اتبع ما أوحى اليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ١٠٧) فاذا وجب على النبى ﷺ أن يدع رأيه لكتاب الله فكيف لا يجب على غيره من الناس ، وهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ترك رأيهم اذا خالف نص الكتاب أو السنة ؟ هذا بيان ما قصده الأئمة من الاستدلال بهذا الحديث . ثم قال الفلانى رحمه الله ، وقال الشافعى فى الرسالة التى أرسلها إلى عبد الرحمن بن مهدى : أخبرنا سفيان بن عيينة عن عبيد الله

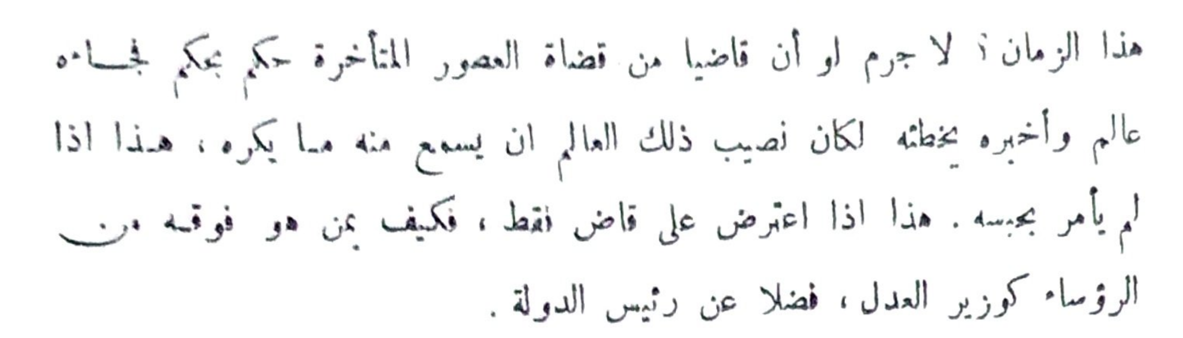
ابن أبي يزيد عن أبيه قال: أرسله عمر بن الخطاب الى شيخ من زهرة كان يسكن دارنا، فذهبت معه إلى عمر فسأل عن وليدة من ولائد الجاهلية، فقال: أمـا الفراش فلفلان، وأما النطفة فلفلان، فقال صدقت، ولكن رسول الله ﷺ قضى بالفراش.

قال محمد تقي الدين: وجه الاحتجاج بهذا الخبر من يفتي ويقضي بالتقليد أن عمر ابن الخطاب، صدق الرجل في شهادته بأن النطفة لفلان، يعني الزاني بتلك الأمة، والفراش لفلان، يعني الذي كان يملك تلك الأمة. ومع ذلك حكم بأن الولد للفراش عملا بقول النبي ﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر. رواه البخاري ومسلم وغيرهما فحكم بنص الحديث وترك الرأي جانبا.

ثم قال الفلاني قال الشافعي: وأخبرني من لا اتهم عن ابن ابي ذئب، قال اخبرني مخلد بن خفاف، قال ابتعت غلاما فاستغللتـه، ثم ظهرت منه على عيب، فخاصمت فيه الى عمر بن عبد العزيز فقضى لي برده، وقضى على برد غلته، فأتيت عروة فأخبرته فقال، أروح اليه العشية، فأخبره إن عائشة اخبرتني أن رسول الله ﷺ قضى في مثل هـذا، ان الخراج بالضمان، فعجلت الى عمر فأخبرته بما أخبرني به عروة عن عائشة عن رسول الله ﷺ، فقال عمر بن عبد العزيز، فما أيسر علي من قضاء قضيته - والله يعلم اني لم أرد فيه إلا الحق فبلغتني فيه سنة عن رسول الله ﷺ فأرد قضاء عمر وأنفذ سنـة رسول الله ﷺ. فراح إليه عروة فقضى لي أن آخذ الخراج من الذي قضى به علي له.

قال محمد تقي الدين: بيان هذا الخبر لمن يقصر فهمه عنه من القراء. أن مخلد ابن خفاف اشترى عبدا من رجل واستخدمه، ثم ظهر له فيه عيب، فـدعا

بايعه الى خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز الأموى ، فحكم عمر على البائع أن يأخذ العبد ويرد ثمنه الى المشترى ، وحكم على المشترى أن يعطى البائع أجرة خدمة العبد فى المدة التى بقى عنده ، ثم قصد مخلد عروة بن الزبير ابن اخت عائشة وتلميذها فحكى له ما حكم به عمر ، فظهر لعروة أن ما حكم به عمر مخالف للحديث الذى رواه عن خالته عائشة عن النبى ﷺ ، وهو قضاؤه ان الخراج بالضمان . ومعنى هذا ان النبى ﷺ حكم فى مثل هذه القضية أن المشترى لا يعطى البائع أجرة خدمة العبد ، لأنه كان فى ضمانه ، فلو تلف العبد أو سرق لم يكن للمشترى ان يطالب البائع بثمنه . فأجرة خدمته تقابل ضمانه له . ومن الضمان ايواؤه والنفقة عليه . ووعد عروة السائل أن يذهب الى الخليفة عمر ويخبره بأن حكمه فى تلك القضية مخالف لما حكم به النبى ﷺ ، غير أن الرجل لم يصبر حتى ينطلق عروة الى الخليفة ويخبره بذلك ، بل ذهب من فوره وأخبر الخليفة بما قاله عروة ، فقال الخليفة عمر بن عبد العزيز كلمته العظيمة . ومعناها ، ما أسهل على ان ارجع عن حكمى الذى حكمت به وأنفذ حكم رسول الله ﷺ . والله يعلم أنى لم أرد بحكمى ذلك إلا الحق ، وهو الموافق لكتاب الله وسنة رسوله . واذ قد ظهر انى أخطأت فما أسهل الرجوع الى الحق . قال مخلد ، فذهب اليه عروة وأخبره بالحديث فحكم على البائع أن يرد لى ما أعطيته من أجرة خدمة ذلك العبد مدة اقامته عندى . وفى هذه القصة فائدة أخرى جليلة ، وهى ان ملوك المسلمين فى ذلك الزمان كانوا يذعنون للحق . يفرحون به وينفذونه ، ولم يكن العلماء يهابونهم اذا اخطئوا فى الحكم ان يلوموهم بخطئهم . وهذا يفسر لنا ما أدركه المسلمون فى ذلك الزمان من العزة والسؤدد . فأين هذا من الديمقراطية التى يتبجح بها أهل



هذا الزمان ؛ لا جرم او أن قاضيا من قضاة العصور المتأخرة حكم بحكم فجاءه عالم وأخبره بخطئه لكان نصيب ذلك العالم ان يسمع منه ما يكره ، هذا اذا لم يأمر بحبسه . هذا اذا اعترض على قاض فقط ، فكيف بمن هو فوقه من الرؤساء كوزير العدل ، فضلا عن رئيس الدولة .

ثم قال الفلانى قال الشافعى : وأخبرنى من لا اتهم من أهل المدينة عن ابن أبي ذئب قال : قضى سعد بن ابراهيم على رجل بقضية برأى ربيعة ابن أبي عبد الرحمن فأخبرته عن النبي ﷺ بخلاف ما قضى به . فقال سعد لربيعة ، هذا ابن أبي ذئب ، وهو عندى ثقة يخبرنى عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيت به ، فقال له ربيعة : قد اجتهدت ومضى حكمك . فقال سعد : واعجبا ، أنفذ قضاء سعد بن أم سعد و ارد قضاء رسول الله ، بل أرد قضاء سعد بن أم سعد ، وأنفذ قضاء رسول الله ﷺ ، فدعا سعد بكتاب القضية فشقه ، وقضى للمقضى عليه .

فعليك بقراءة هذا الكتاب ، فان فيه من الفوائد العلمية ما تشتد حاجة كل طالب علم الى معرفته . والآن انقل شيئا قليلا من كلام الامام بن عبد البر فى فساد التقليد فى دين الله وبطلانه . قال ابن عبد البر فى كتابه جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٠٩ / ما نصه .

(باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع)

قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد فى غير موضع من كتابه فقال : (إتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) وروى عن حذيفة وغيره قالوا لم يعبدوهم من دون الله ، ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم . وقال عدى ابن حاتم ، أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقي صليب ، فقال لى : يا عدى :

الق هذا الوثن من عنقك وانتهيت اليه وهو يقرأ سورة براءة حتى اتى على هذه الآية : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) قال قلت يا رسول الله انا لم نتخذهم اربابا ، قال بلى ، أليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه ، ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه ، فقلت بلى، فقال تلك عبادتهم . ثم روى بسنده الى ابي البحترى فى قوله عزوجل (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) قال : أما انهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ، ولكنهم أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله فأطاعوهم ، فكانت تلك الربوبية . ثم قال أبو عمر وقال جل وعز (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء، فقالوا (انا بما أرسلتم به كافرون) وفى هؤلاء ومثلهم قال الله جل وعز (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقال (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) وقال جل وعز عائبا لأهل الكفر وذاما لهم (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) وقال (انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) ومثل هذا فى القرآن كثير من ذم التقليد الآباء والرؤساء . وقد احتج العلماء بهذه الآيات فى ابطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها ، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وايمان الآخر ، وانما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للقلد ، كما لو قلد رجل فكفر وقلد آخر فأذنب ، فقلد آخر فى مسألة دنياه فأخطأ وجهها ، كان

كل واحد ماوما على التقليد بغير حجة ، لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضا وإن اختلفت الآثام فيه ، ثم قال أبو عمر : ص ١١٦

وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم ، فأحسن ما رأيت من ذلك قول المزنى رحمه الله ، وأنا أورده ، قال : يقال لمن حكم بالتقليد ، هل لك من حجة فيما حكمت به ، فإن قال نعم ، أبطل التقليد ، لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد . وإن قال حكمت فيه بغير حجة ، قيل له ، فلم أرقت الدماء وأبحت الفروج وأتلفت الأموال ، وقد حرم الله ذلك إلا بحجة . قال الله جل وعز (هل عندكم من سلطان بهذا) أى من حجة بهذا ، قال ، فإن قال : أنا أعلم انى قد أصبت ، وان لم أعرف الحجة ، لأنى قلدت كبيرا من العلماء ، وهو لا يقول الا بحجة خفيت على ، قيل له ، اذا جاز لك ان تقلد معلمك ، لأنه لا يقول الا بحجة خفيت عليك ، فقلد معلم معلمك ، لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلمك . كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت عليك ، فإن قال نعم : ترك تقليد معلمه الى تقليد معلم معلمه ، وكذلك من هو أعلى حتى ينتهى الأمر الى أصحاب رسول الله ﷺ . وان أبى ذلك نقض قوله ، وقيل له : كيف تجوز تقليد من هو أصغر منك و أقل علما ، ولا تجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علما ، وهذا متناقض . فإن قال : لأن معلمى ، وان كان أصغر ، فقد جمع علم من هو فوقه الى علمه ، فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك . قيل له ، وكذلك من تعلم من معلمك : فقد جمع علم معلمك ، وعلم من فوقه الى علمه ، فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك ، لأنك جمعت علم معلمك وعلم

من فوقه الى علك . فان أعاد قوله ، جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء أولى بالتقليد من أصحاب رسول الله ﷺ . وكذلك الصاحب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه فى قياس قوله والأعلى الأدنى أبدا . وكفى بقول يؤول الى هذا قبحا وفسادا .

قال ابو عمر (يعنى نفسه) وقال اهل العلم والنظر : حد العلم التبيين وإدراك المعلوم على ما هو به فمن بان له الشئ فقد علمه ، قالوا ، والمقلد لا علم له ، ولم يختلفوا فى ذلك ، ومن هاهنا والله أعلم قال البحترى .

عرف العالمون فضلك بالعلـ ـم وقال الجهال بالتقليد

وقال أبو عبد الله بن خويز منداد البصرى المالكى : التقليد معناه فى الشرع الرجوع ، الى قول لاحجة لقائله عليه ، وذلك ممنوع منه فى الشريعة ، ولاتباع ما ثبت عليه حجة . وقال فى موضع آخر من كتابه : كل من اتبعت قوله من غير ان يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فانت مقلده . والتقليد فى دين الله غير صحيح . وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله . فانت متبعه ، والاتباع فى الدين مسوغ ، والتقليد ممنوع .

وذكر محمد بن حارث فى أخبار سحنون بن سعيد عن سحنون قال كان مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبى سلمة و محمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم يختلفون الى ابن هرمز ، فكان اذا سأله مالك وعبد العزيز اجابهما ، واذا سأله ابن دينار وذووه لا يجيبهم ، فتعرض له ابن دينار يوما فقال له ، يا أبابكر بم تستحل منى ما لا يحل لك قال له ، يا ابن أخى ، وما ذاك ؟ قال يسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما ، وأسألك انا وذوى فلا تجيبنا ، فقال اوقع ذلك

يا ابن أخى فى قلبك ؟ قال نعم ، قال انى كبرت سنى و رق عظمى وأنا أخاف أن يكون خالطنى فى عقلى مثل الذى خالطنى فى بدنى ، ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان ، اذا سمعا منى حقا قبلاه ، واذا سمعا خطأ تركاه ، وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه .

قال ابن عبد البر ، قال أبو عمر : يقال لمن قال بالتقليد ، لم قلت به وخالفت السلف فى ذلك فانهم لم يقلدوا ، فان قال قلدت ، لأن كتاب الله جل وعز لا علم لى بتأويله وسنة رسوله لم أحصها ، والذى قلدته قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم منى . قيل له ، أما العلماء اذا اجتمعوا على شئ من تأويل الكتاب أو حكاية سنة عن رسول الله ﷺ أو اجتمع رأيهم على شئ فهو الحق ، لا شك فيه ، ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض ، فما حجتك فى تقليد بعض دون بعض ، وكلهم عالم ، ولعل الذى رغبت عن قوله اعلم من الذى ذهبت الى مذهبه ، فان قال ، قلدته ، لأنى علمت أنه صواب ، قيل له علمت ذلك بدليل من كتاب أو سنة أو اجماع ؟ فان قال نعم : فقد أبطل التقليد ، وطولب بما ادعاه من الدليل وان قال ، قلدته ، لأنه أعلم منى قيل له ، فقلد كل من هو اعلم منك ، فانك تجد من ذلك خلقا كثيرا . ولاتخص من قلدته ، اذ علتك فيه انه أعلم منك ، فان قال قلدته ، لأنه أعلم الناس ، قيل له ، فهو اذا اعلم من الصحابة ، وكفى بقول مثل هذا قبحا ، وان قال ، انما أقلد بعض الصحابة ، قيل له ، فما حجتك فى ترك من لم يقلد منهم ، ولعل من تركت قوله منهم أفضل ممن أخذت بقوله ، على ان القول لا يصح لفضل قائله ، وانما يصح بدلالة الدليل عليه ، انتهى كلام الامام ابن عبد البر .

وقوله تعالى : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها . الخ . هذه الآية مفصلة لما أجمل فى مثلها . وقد جاءت السنة موضحة لها . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : ان ربكم عز وجل رحيم ، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فان عملها كتبت له عشر الى سبعمائة الى أضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فان عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل . و لا يهلك على الله إلا هالك . وروى مسلم عن ابى ذر قال ، قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل : من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر . ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئا جعلت له مثلها مغفرة ، ومن اقترب إلى شبرا اقتربت اليه ذراعا ، ومن اقترب الى ذراعا اقتربت اليه باعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة .

ثم قال تعالى : (قل اننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين : ١٦١)

المعنى العام

أمر الله نبيه أن يخبر جميع الناس بما أنعم الله عليه به من هدايته الى صراط مستقيم وذلك الصراط المستقيم هو الدين الذى بلغ الغاية فى الكمال وهو ملة ابراهيم حنيفا ، أى متمسكا بدين التوحيد تاركا كل ما خالفه ، (وما كان من المشركين) توكيد لما كان عليه من التوحيد ، وتعظيم لشأن التوحيد ، لأنه الأصل الأعظم لدين الحق الذى بعث الله به جميع الرسل والذى لا يرضى غيره لقوله تعالى فى سورة النساء (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك

لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما : ٤٨) فان الله لا يقبل صلاة ولا صياما ولا صدقة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا غير ذلك من الأعمال الصالحة إلا إذا جاء مع توحيده باخلاص العبادة له واعتقاد أنه رب كل شئ وخالق كل شئ والمتصرف فى كل شئ لا يشاركه فى ذلك احد ، لا نبى مرسل ولا ملك مقرب ولا عبد صالح . ومثل ذلك قوله تعالى فى سورة النحل (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين : ١٢٣) قال ابن كثير : وليس يلزم من كونه أمر باتباع ملة ابراهيم الحنيفية أن يكون ابراهيم أكمل منه فيها ، لأنه عليه السلام قام بها قياما عظيما وأكملت له إكمالا تاما لم يسبقه أحد الى هذا الكمال . ولهذا قال ، انا خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الاطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذى يرغب اليه الخلق ، حتى الخليل عليه السلام . وأخرج ابن مردويه بسنده الى ابن أبزى عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ اذا أصبح قال : أصبحنا على ملة الاسلام وكلمة الاخلاص وملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين . وروى أحمد بسنده الى ابن عباس قال ، قيل لرسول الله ﷺ أى الأديان أحب الى الله تعالى ، قال : الحنيفية السمحة . وروى أحمد أيضا بسنده الى عائشة قال ، وضع رسول الله (ص) ذقنى على منكبيه لأنظر الى زفن الحبشة حتى كنت التى مللت فانصرفت عنه . قال ابن كثير عقب نقل هذا الحديث ، قال عبد الرحمن عن أبيه ، قال : قال لى عروة إن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ يومئذ ليعلم يهود أن فى ديننا فسحة ، أنى أرسلت بحنيفية سمحة ، أصل الحديث مخرج فى الصحيحين ، والزيادة لها شواهد من طرق عدة . وقد استقصيت طرقها فى شرح البخارى ولله الحمد والمنة . انتهى كلام

ابن كثير . وحديث عائشة وما فى معناه يرد على الغلاة المتزمتين الذين يبالغون ويتشددون فى الأمور التى جعل الله فيها فسحة فيخرجون بالدين عن يسره وسماحته ويبغضونه الى الناس . وقد قال النبي ﷺ كما فى صحيح البخارى من حديث أبي هريرة « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا : فانما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » قال محمد تقى الدين : أى بعث نبيكم ميسرا ومبشرا ، ولم يبعث معسرا ومنفرا ، فعليكم أن تبلغوا رسالته على وجهها . فلا تضيقوا ما وسع الله ولا تحرموا ما أحل الله ولا تحلوا ما حرم الله .

ثم قال تعالى : (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ١٦٢ :) (لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين : ١٦٣)

المعنى العام

لما كان المشركون فى زمان النبي ﷺ وفى كل زمان ومكان يدعون غير الله لقضاء حاجاتها) من جلب خير ودفع شر . ويذبحون الذبائح ويقربون القرابين لمن عبدوهم من دون الله أمر الله رسوله أن يقول لهم جميعا (إن صلاتى) أى دعائى واستغاثى وما يصحبها من ركوع وسجود وقيام وتضرع وتذلل وذبحى الذبائح إنما هو لله رب العالمين لا شريك له ، فلا أتوجه لغيره ابدا وما أمرنى الله إلا بذلك وأنا أول المسلمين ظاهرا وباطنا . فالنبى ﷺ هو أول المسلمين من هذه الأمة . فالنسك هوالذبح فى الحج والعمرة والأضاحى وغيرها مما يتقرب به إلى الله . وروى ابن ابى حاتم بسنده الى ابن عباس قال ، ضحى رسول الله ﷺ فى يوم عيد النحر بكبشين . وقال حين ذبحهما ، وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، (إن صلاتى ونسكى ومحياى

ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) . قـال ابن كثير ، وقال قتادة فى قوله تعالى : (وأنا أول المسلمين) أى من هذه الأمة ، وهو كما قال ، فان جميع الأنبياء قبله ، كلهم كانت دعوتهم الى الاسلام ، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى فى سورة الأنبياء (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون : ٢٥) وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه ، فان توليتم فما سألتكم من أجر أن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال تعالى فى سورة البقرة : ١٣٠ - ١٣٢ (ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه . ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين . اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها ابراهيم بنيه ، ويعقوب يا بنّى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وقال يوسف عليه السلام فى سورة يوسف (رب قـد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين : ١٠١) وقال موسى فى سورة يونس : (وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين . فقـالو على الله توكلنا ربنا لاتجعلنـا فتنة للقوم الظـالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) وقال تعالى فى سورة المائدة (انا أنزلنا التوراة فيها هـدى ونورا يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار : ٤٤) وقال تعالى فى سورة المائدة (واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون : ١١١)

فالاسلام في هذه المواضع كلها معناه توحيد الله واسلام النفس له وعدم

التوجه الى غيره البتة ، وهو معنى قوله تعالى فى سورة آل عمران (إن الدين عند الله الاسلام : ٩١) أى اسلام القلب لله . فالمسلم بهذا المعنى لا يمكن أن يشرك بالله شيئا .

ثم قال تعالى : (قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون : ١٦٤) وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم : ١٦٥)

المعنى العام

قوله تعالى : (قل أغير الله أبغى ربا) الخ . قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله ، أغير الله أطلب ربا يحفظنى وينعم على ويدبر أمرى ويرحمنى اذا مسنى الضر التجئ اليه فيكشفه عنى ، معاذ الله ان أفعل ذلك . كيف وهو رب كل شئ ، كل ما فى السموات والأرض مربوب له هو الذى يحفظ وجوده ويمده بكل ما يحتاج اليه . وأمثال هذا فى القرآن كثير كما قال تعالى فى أول هذه السورة الآية (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل انى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين : ١٤) وقال تعالى فى سورة آل عمران (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنامسلمون : ٦٤) وقال تعالى فى سورة آل عمران أيضا (ولا يأمركم أن تتخذوا الملئكة

والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون : ٨٠)

قال محمد تقي الدين : والعجب كل العجب ممن يقرأ هذه الآيات ، ومع ذلك اذا قام ينادي يا رسول الله ! واذا قعد يستغيث يا رسول الله ، واذا أفزعه أمر يهتف يا رسول الله ، واذا سأل أحدا يقول أسئلك بالنبي ، واذا حدثه أحد وأراد أن يتحقق صدقه يستحلفه بالنبي ، واذا أراد أن يوكد خبرا يحلف بالنبي واذا أراد أن يدعو لأحد يقول جعلت في حمى النبي . فأمثال هذا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، وهم الذين عنى الله سبحانه وتعالى بقوله في سورة الأنفال (وان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون : ٧٢) ومع ذلك فهؤلاء أبعد الناس عن طاعة الله ورسوله وعن اتباع سنته وعن تعظيم شريعته ، إنما هي ألفاظ شركية تلقفها الصغير من الكبير وورثها الآخر عن الأول وصارت من جملة كلمات اللغة التي يتحاورون بها فنعوذ بالله من الخذلان . وقال تعالى في سورة الزمر (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين : ٦٤ - ٦٦) . وقد أدب الله سبحانه وتعالى خير خلقه محمدا ﷺ في القرآن الكريم فقال تعالى في آخر سورة هود (ولله غيب السموات والأرض ، واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه) وقال تعالى في أواخر سورة الشعراء (وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين انه هو السميع العليم) وقال تعالى في سورة الملك (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين : ٢٩) وقال تعالى في سورة المزمل (رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا : ٩) وهذا الأدب العظيم

شامل لأمته ، وهم معنيون به لقوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى) ثم قال تعالى : (ولا تكسب كل نفس إلا عليها .) وفسره بقوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى .) يعنى أن كل انسان إنما يؤاخذ بذنبه ، ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره كما قال تعالى فى سورة فاطر (ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى : ١٧) وقال تعالى فى سورة طه (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما : ١١٢) قال ابن كثير : قال علماء التفسير : أى فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته . وأما قوله تعالى فى سورة العنكبوت (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ إنهم لكاذبون . وليحملن اثقالهم واثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون : ١٢ - ١٣) فهو كقوله تعالى فى سورة النحل (واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ، قالوا أساطير الأولين : ٢٥) ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) وبيان ذلك ما أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئا .ومن دعا الى ضلالة ، كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا) وقوله تعالى، (ثم الى ربكم مرجعكم)، الخ . وعيد لمن أشرك بالله وأعرض عن كتابه واتباع رسوله أن الله يحصى كل شئ من عمله ويخبره به يوم الجزاء ثم يعاقبه عليه . وقوله تعالى ، (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) الخ . الخلائف جمع خليفة، وهم القوم يخلف بعضهم بعضا، يذهب هذا الجيل ويأتى جيل آخر.

وتذهب هذه الدولة وتأتى دولة أخرى مكانها . وهذا كقوله تعالى فى سورة الزخرف (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون : ٦٠) وكقوله تعالى فى سورة الأعراف (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون : ١٢٩) وقال تعالى فى آخر سورة محمد ﷺ (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) وأمثال ذلك فى القرآن كثير . وقوله سبحانه (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) الخ أى فضل بعضكم على بعض فى الارزاق والجاه والأخلاق والمناظر والأشكال والقوى كما قال تعالى فى سورة الزخرف (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات : ٢٢) وله الحكمة البالغة فى ذلك فلو جعلهم سواء لفقد التعاون ولم يبق لأحد فضل على أحد ، ولتعطلت حكمة الاختبار والابتلاء . قال تعالى (ليبلوكم فيما آتاكم من النعم فيظهر فضل الشاكر لأنعم الله فيزيده الله ويظهر بطر الكافر فينتقم الله منه . أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قال، قال رسول الله ﷺ ، ان الدنيا حلوة خضرة ، وان الله مستخلفكم فيها ، فنظر ما تحملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فان اول فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء .

قال محمد تقى الدين : فى معنى قوله تعالى فى سورة الزخرف (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) . هذه قاعدة عظيمة وحكمة بالغة من علوم القرآن يجهلها كثير من البشر ، ولو عرفوها اصلحت أحوالهم ورغد عيشهم واطمأنت نفوسهم وسعدوا فى عاجلهم وآجلهم . والناس فى هذا الزمان من حيث الأرزاق والأموال على مذاهب ثلاثة ، مذهب أصحاب رؤوس الأموال ، ومذهب الاشتراكيين ، ومذهب الشيوعيين . أما أصحاب رؤوس

الأموال ، فيعتقدون ان كل انسان حر فيما يكتسبه من المال بأى طريق ما دام لا يخالف القانون الذى يضعه ويطبقه أصحاب رؤوس الأموال انفسهم فيملك ما شاء من الأموال المنقولة وغير المنقولة بطريق الربوا والتجارة المطلقة . وكل ما ملكه بأى وجه فهو له لا يجب عليه فيه حق لأحد ، ولنضرب لذلك مثلا ، قوم جاءوا الى ارض واستوطنوها واقتسموها فأخذوا يستثمرونها ، فكان بعضهم قادرا على الاكتساب عالما بطرق جمع المال ، له فى ذلك حيل وافرة ووجوه مختلفة ، وكان سائرهم قاصرين فى ذلك ، فلم تمض إلا مدة من الزمان غير طويلة حتى أخذ عامتهم يخرجون من أراضيهم بـالبيع والرهن ويستدينون من أولئك الدهاة حتى أصبحوا فقرا معدمين وانحصرت الأرض والأموال فى شرذمة قليلة. وأصبح أكثر أهل القرية عالـة عليهم يتحكم المتمولون فى رقابهم ويسخرونهم فى خدمتهم وما يشاءون من الأعمال ، ولا يعطونهم من الأجور إلا شيئا قليلا لا يكاد يكفيهم لأدنى معيشة . وقد يقل المتمولون ويبتلع بعضهم بعضا حسب مقدارتهم واحتيالهم ، فربما انحصر الملك والمال والسيادة فى رجل واحـد ، وصار أهل القرية عبيدا له يشقون كلهم لسعادته ، فهذه معضلة تحتاج الى حل فماذا يعمل هؤلاء المساكين الذين يستثمرون تلك الأموال ويحفظونها وينسونها ولا ينالون منها شبع بطونهم وكسوة أجسامهم ومساكن تقيهم من الحر والبرد والأمطار . أيثورون عليه ويقتلونه ؟ ويعيدون قسم الأراضى، لو فعلوا ذلك لجرى عليهم من التقلبات والتغيرات ما جرى على أسلافهم حتى تعود المعضلة كما كانت. وهذا ليس بحل للمعضلة ، وانما هو امتداد وتسلسل للمعضلات والشقاء . أم تقوم جماعة منهم فتجعل نفسها وصية على سائرهم بدعوى أنهم سفهاء ، وهذه الجماعة

أهل عقل ورشد فتسيطر تلك الجماعة على جميع أهل القريـة وتتحكم فى رقابهم وأعمالهم ، وما تثمره أعمالهم من أموال وارزاق . وكلما مات واحـد من تلك الجماعة أو تعطل عن العمل لشيخوخة أو مرض أو غضب عليه جمهورهم فعزلوه انتخبوا واحدا من العامة وجعلوه مكانه . واذا اتفق أن أحدا من العامة سخط على ذلك النظام أو استقل أجرته أو شكى الجوع أو ضيق المعيشة ، فان مصيره الحبس والتعذيب والاتهام بالخيانة والخروج من ربقة الطاعـة . هـذا حل صحيح للمعضلة . اما أنا فأظن انه فى غاية الفساد ، وقد تكون هذه الحالة التى صارت اليها هذه الجماعـة شرا مما قبلها ، فان استبداد شخص واحد أو أشخـاص قليلين واستيلائهم على الأموال وتحكمهم فى رقاب العامة دون أن يكون لهؤلاء المتحكمين نظام يوحد بينهم ورابطة تربطه وجيش يصولون به وقانون يصلتونه سيفـا على رؤوس المستضعفين أقل شرا وأخف ضررا ، لأن أولئك المستضعفين يمكنهم ان يسترحموا ذلك القوى ، أو أولئك الأقوياء ويشتـكوا لهم سوء حـالهم فيرحموهم بعض الرحمة ، ولا يوجد قانون يمنعهم من ذلك ولا شرطة ولا جيش . وقـد يلجئون الى الاضراب وترك الشغل ، فيضطر المالك أن يجب بعض مطالبهم . أما فى الحالة الثانية فلا يمكنهم شئ من ذلك . فان قيل فلماذا يؤول الأمر ، ولابد الى استيلاء قليل من الجماعة على أموال أكثرهم ؟ أفلا يمكن أن يبقوا متساوين على قسمتهم الأولى ، كل يزرع أرضه ويعيش بما يخرج منهـا ، فالجواب ، لا ، لأن الله قسم العقول المدبرة والكفاءات والمؤهلات ولم يجعل الناس فى ذلك سواء . وهـذا معنى قوله تعـالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) فلا يستطيع جمع المال وتنميته واستثماره إلا من وهبه الله ملكة خاصة . وما أحسن ما قال بعضهم فى ذلك .

كم عالم يسكن بيتا بالكسرا و جاهل يملك أرضا وقرى

لما قرأنا قوله سبحانه نحن قسمنا بينهم زال المرا

وقال بعض الزنادقة :

كم عالم عالم ضاقت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الاقسام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

فان قلت فما هو الحل ، فالجواب هو القانون الذى أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وهو اباحة الملك الفردى بالغا ما بلغ من الكثرة مقيدا بشروط وقوانين . منها تحريم الغش والخداع ، ومنها تحريم بعض البيوع التى فيها استئثار أو حيف . ومنها تحريم الربى بتة . ومنها وجوب الزكاة وإجبار من وجبت عليه على دفعها ، ولو بالقتال ان اضطر اليه أولوا الأمر كما فعل أبو بكر الصديق ووافقه أصحاب رسول الله ﷺ كلهم . وهذا الحل هو افضل الحلول ، وعلى ذلك فانه لا يسوى بين الناس فى الاموال ، فان التسوية بينهم لا سبيل اليه أبدا ، لأن التفاوت فى المؤهلات جبلة قد جبل عليها البشر لا تبديل لخلق الله ، وهذا أفضل علاج لهذه المشكلة الاجتماعية .

وقد حاول الاشتراكيون الديمقراطيون والمستبدون أن يحلوا هذه المشكلة بحلول وضعوها بعقولهم القاصرة وشمائلهم الجائرة ليضاهئوا بها شريعة الله ، منها التأميم ، ومنها كثرة الضرائب على الأعمال والممتلكات . وهيهات هيهات ، أن يجدوا قانونا اجتماعيا إصلاحيا يكفل تعاون الناس وتعادل معيشتهم إلى حد ما ، ومحو الضغائن من قلوبهم ورضا أفرادهم وجماعاتهم بما قسم الله لهم كالشريعة المحمدية الغراء التى ليست رأسمالية و لا شيوعية ولا اشتراكية ، بل كل ما فى

تلك الأنظمة من صواب وخير فقد سبقت اليه وبينته غاية البيان . وكل ما فيها من شر فقد رفضته وابتعدت منه فخرجت من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين .

ثم قال تعالى : (ان ربك سريع العقاب) أى لمن عصاه وخالف أمره يسرع اليه عقاب الله فى الدنيا والآخرة كما عاقب اعداء الاسلام من كفار العرب فى غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وما زال عقابه يسرع الى أعدائه فى كل زمان ولا يزال كذلك . وانه لغفور رحيم لذنوب أوليائه المتمسكين بدينه المتبعين لكتابه وسنة رسوله ، جعلنا الله منهم .

وهذا آخر ما يسره الله من تفسير هذه السورة المباركة . وكان الفراغ منه عشية يوم السبت لاثنتى عشرة خلون من جمادى الآخر سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ١٣٨٤ من هجرة النبى الاكرم ﷺ . بمدينة مكناس حرسها الله من كل بأس والحمد لله رب العالمين .

◎ ◎ ◎